دير الجسور

ميشيل كيلو



قصة طويلة

دير الجسور

ميشيل كيلو

ميشيل كيلو

دير الجسور

قصة طويلة

الفهرسة أثناء النشر - إعداد دار ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع
ميشيل كيلو
دير الجسور (قصة طويلة)
(168) ص؛ 21 سم.

ISBN 978-605-79646-0-1
9 786057 964601

Printed Book ISBN: 978-605-7964-60-1
E-Book ISBN: 978-605-7964-61-8

العنوان بالإنكليزية:

Deir Al josoor

By Michel kilo

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز حرمون للدراسات المعاصرة

الطباعة والتوزيع

ميسلون للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف:
الدوحة، قطر: 97444885996+
إسطنبول، تركيا: 902125240405+

صندوق البريد:
22663 الدوحة، قطر
34091 إسطنبول، تركيا

البريد الإلكتروني: info@maysaloon.com
الموقع الإلكتروني: www.maysaloon.com

Elma basım – Elma Printing & Finishing
Sefaköy, 34295 Küçükçekmece/ İstanbul
+90 212 697 30 30

الطبعة الأولى

إسطنبول، تركيا - كانون الثاني/ يناير 2019

المحتويات

باريس

أيلول/ سبتمبر 1988

كانون الأول/ ديسمبر 1990

الإهداء

إلى إلياس مرقص: معلمًا وصديقًا

القسـم الأول

تقارير عن الحالة العرباوية

التقرير الأول

بينما كنت جالسًا في الحافلة المتجهة إلى بلدة القساطل الشرقية، مقر معسكرات اللواء الثالث المدرع التابع للفرقة الثالثة المحمولة، مصغيًا إلى حركات الركاب وسكناتهم، مستغلًا عتمة المساء الشتوي، وتظاهري بالنوم، ومنفذًا تعليمات وإرشادات قيادة الفرع حول ضرورة بقاء عناصره في يقظة تامة، التقطت أذناي نتفًا من حديث يدور بين شخصين يجلسان على المقعد الذي أمامي، يهمسان بصوت يكاد لا يكون مسموعًا، فقد قال أحدهما: من صبر نال، وإن طال انتظاره، والثمر الناضج ما لم يقطف في أوانه يفسد، ثم حكى قصة، نسبها إلى من وصفه برجل صلاح وتقوى، لم أسمع باسمه من قبل، يقول إن شجرة رجته أن يقطف ثمارها، ويحررها من الإحساس بأنها تشبه امرأة تتعذب؛ لأنها لم تتخلص من فاكهة بطنها. وبعد لحظة صمت، أضاف الصوت مؤكدًا صحة حديث الرجل الصالح؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل لكل أجل ميعادًا، ولكل أمر تدبيرًا؛ عندئذ أضاف الآخر مؤكدًا أن المردود سيكون وفيرًا، بعون الله، وأن للحصاد وقتًا لا وقت له سواه. أشعل الثاني سيكارة، زفر دخانها في العتمة، وأضاف أن عليهما أن يصلا الليل بالنهار، ويستعينا بكل من في متناول يدهم، من أقارب وأصحاب، بما أن الوقت ضيق، والضباط لا يرحمون، وأوضاعهما -جنودًا- صعبة، والأمور لا تسير على هواهما. توقف الصوت، فانقطع حبل الكلام، وساد

الصمت مدة، تابعا خلالها ضوء الحافلة الخافت، وهو يشق طريقًا كثيرة الالتواء والتعرج، قبل أن يصل الصوت الأول ما انقطع من خيط الكلام، وينطلق من جديد في حديث مهموس، لم أستطع تبينه؛ لارتفاع صوت المحرك، وإطلاق السائق العنان لبوق الحافلة، على الرغم من أن المكان قفر، والأرض منبسطة ومكشوفة، والحركة على الطريق معدومة في مثل هذا الوقت. كان الحديث المهموس يتقطع ثم يتصل، عندئذ، كانت تتناهى إليّ مِزقٌ منه حول صواريخ وطائرات وعجاج وجفاف وحصاد، قبل أن يرفع أحدهما صوته متذمرًا من الطعام والراتب، كأنه يريد تحريض من في الحافلة من عساكر، وسخر من قائده المباشر، قائلًا: إنه حمار بأربع آذان. عاد الصمت من جديد، وظل الجنديان صامتين إلى أن نهض أحدهما، وهو يذكّر الآخر بضرورة ألا ينسى الموعد المقرر، قبل أن يغادر الحافلة إلى الظلمة الحالكة التي كانت تلف المكان؛ نهضت -عندئذ- من مقعدي، قاصدًا مقعده، لكن عسكريًا، كان يقف في ممر الحافلة، سبقني إليه، فلم أستطع التعرف إلى وجه الشخص الآخر الذي غادر بعد قليل، وغاب -أيضًا- في العتمة، مثيرًا فضولي حول دوره في ما بدا لي مؤامرة، كان ينسج خيوطها مع الغامض الآخر الذي -ربما- كان مسؤوله المباشر، المكلف بتلقينه دوره فيها.

لم أبق بلا حراك، فقد سارعت إلى تنفيذ ما تعلمته في دورة «اليقظة المكثفة»، فانتقلت إلى حيث كان يجلس الثاني منهما، وسألت الجندي الذي جلس قبلي فيه عن اسم العسكري الذي كان قربه قبل لحظات قليلة، متذرعًا بشبه بينه وبين شخص أعرفه؛ فأجاب، والنعاس

يغالبه: لا أعرف بالضبط، لكنني أظن أن الآخر دعاه بعرباوي، أو عرساوي، وأنه من جماعة الصواريخ.

أرجو من سيادتكم إلقاء القبض على العسكريين، والتحقيق في أقوالهما، ولغتهما الغامضة التي تختفي وراءها مؤامرة على قيادتنا وحزبنا. إن حديثهما عن الإرادة والعزيمة والأوضاع الصعبة، والمردود الوفير، وضرورة الاستعانة بآخرين، وتكرار تهامسهما، وصمتهما، وانتقادهما الطعام والراتب والقادة، واستغلالهما عتمة الليل والحافلة؛ ليجلس وأحدهما قرب الآخر، واتفاقهما المحتمل مع السائق على طمس صوتيهما بصوت البوق المرتفع، وضجيج المحرك، قرائن واضحة الترابط والأهداف، تفضح ما يضمرانه من شر لوطننا.

المندوب في حافلة القساطل

حامد أبو الشوارب

التقرير الثاني

السيد رئيس الفرع

تلقى فرعنا، في وقت متأخر من مساء هذا اليوم، هاتفًا مسجلًا من المقر الجوال، يتضمن نص حديث دار بين عسكريين، عقدا اجتماعًا خطِرًا في إحدى وسائل النقل العامة، ترأست؛ لدراسته، اجتماع هيئة طوارئ الفرع، أطلعتها فيه على الملف الخاص بالاختراق الأمني الذي يبدو أنه حدث في الفرقة الثالثة المحمولة، وكلفتها بإعداد تقرير عاجل عما يُحتمل أن يكون المجرمان قد اعتزماه، أضعه بين أيديكم، منتظرًا توجيهاتكم، وما تأمرون به من تدابير.

ملحوظة: ينتسب المتآمران إلى سلاح الصواريخ، كما هو ثابت من حديثهما، ويُرجَّح أنهما كانا يضعان خطة للاستيلاء على إحدى قواعده، وقد أكدت الهيئة أن تنفيذ خطة -كهذه- يتطلب عددًا كبيرًا من العناصر، واستبعدت أن يقتصر النشاط التآمري على العنصرين المذكورين في تقرير مندوب الأمن. من غير المحتمل -أيضًا- تكليف جندي عادي بفعل تآمري خطِر كالذي بين أيدينا؛ لذلك، نفترض أن المدعو عرباوي أو عرساوي لا بد من أن يكون ضابطًا في أحد مواقع الدفاع الجوي. وفي ضوء هذه المعطيات، قررت هيئتنا رفع

الأمر من دون إبطاء إليكم؛ لتتخذوا حياله ما ترونه من تدابير. وقد أوليته ما يستحقه من اهتمام، فبادرت إلى إرسال قوى أمنية كافية إلى الأماكن المحتملة لانتشار المتآمرين الذين ربما كانوا يعرفون تحركات القيادة، ويعتزمون شرًا بوطننا، ورفعت توصية إلى الجهات العليا حول ضرورة الحد من تنقلاتها بالطائرات، وتغيير المسارات التي تستعملها -عادة- في تحركاتها البرية، واستنفار قواتنا المسلحة، تحسبًا لأي طارئ. وطلبت من قيادة الفرقة الثالثة اعتقال وتوقيف أي مجند أو جندي، أو صف ضابط أو ضابط، اسمه عربي أو عرباوي أو عرساوي، أو أي اسم آخر يبدأ بحرف العين، وينتهي بحرف الياء، في موعد أقصاه العاشرة من صباح الغد، على أن تسبق اعتقالات هؤلاء الاحتفالات بالحركة التصحيحية المباركة. أخيرًا، قررت الهيئة استدعاء مندوب الأمن الذي كشف أسرار المؤامرة؛ للتحقيق معه في ما شاب تقريره من نواقص وثغرات، تشي بعدم تقيده بما تلقنه من أسس للهمل الأمني المهني في دورة الشهادات العليا، وأرسلت دورية خاصة إلى قرية القسطل الشرقية؛ لاعتقال سائق الحافلة الذي كان يطلق العنان لبوقه في مكان خال من السيارات والمارة، على أن تفضح اعترافاته أسباب سلوكه المشبوه.

على الرغم من النواقص والثغرات الكثيرة في تقرير مندوب الأمن، فقد قررت هيئتنا عده صحيحًا من حيث المبدأ؛ لاتفاقه مع تقديراتنا السياسية وتحذيراتنا المتكررة لعناصرنا وأجهزتنا، وتوجيهات قيادتنا الحكيمة الأخيرة حول المؤامرة التي ستتعرض لها بلادنا في الأسابيع التي سبقت عيد ثورتنا، ونكرر أن المندوب لم يتقيد بالأصول المرعية

في كتابة التقارير، بل حاول الظهور بمظهر مثقف قادر على الكتابة المنمقة، ففوّت علينا معرفة مسائل مهمة، مثل موضوع المؤامرة، والأقوال التي تفوه بها المتآمران، وهوية الرجلين، وصفاتهما الجسدية، بمثل ألوان عيونهما وشعريهما وبشرتيهما، ودرجة خشونة صوتيهما، وتقدير طوليهما، ووزنيهما، وشكليهما الخارجيين، من ثياب وما شابه، وما يصدر منهما من روائح، ويميزهما من علامات فارقة، وما يتصفان به من حركات عادية، أو غير طبيعية، وفاته -كذلك- وصف الحافلة، وذكر المكان الذي نزل فيه المتآمران، وساعة نزولهما، والهدف الذي قصده كل منهما؛ ما أضاع علينا لحظات ثمينة، نحن في أمس الحاجة إليها، وألقى بظلال من الشك على أقواله، دفعت عضوًا من أعضاء هيئتنا إلى عدّه تقريرًا غير جدير بالتصديق والثقة.

رئيس هيئة الطوارئ، نائب رئيس الفرع العسكري الخامس،
المكلف بالمقر الجوال للفرقة الثالثة المحمولة

المقدم صبحي التاجر

التقرير الثالث

بناء على الأمر الشفهي الصادر إلينا من قيادة الفرقة، فقد شكلنا مجموعات مطاردة وصدام، كلفناها بمداهمة واعتقال المجرمين من أصحاب الأسماء المشبوهة، الوارد ذكرها في البرقية المسجلة «رقم واحد»، الصادرة من قيادة الفرع، وتتضمن الأمر بالقبض عليهم دفعة واحدة، وفي وقت واحد، مهما تباينت أماكن وجودهم، وتباعدت؛ لهذا الغرض، قررنا استخدام وسائط نقل وتحرك مختلفة، وتحريك مجموعات في أوقات متباينة على طرق ومسارات متباعدة، بعد وضع قطعات الفرقة كافة في حال استنفار قصوى، وإصدار الأوامر بتقييد رمايات الصواريخ، مهما كانت الأسباب، والإيعاز لقادة الوحدات بالقبض على العرباويين من دون إبطاء، وتشديد الحراسة على مداخل والمعسكرات ومخارجها، وإلغاء الإجازات كافة، وإعطاء الحراس أمرًا بإطلاق النار على الداخلين إلى وحداتهم، والخارجين من غير أبوابها الرسمية، آخذين في حسباننا أن يكون عدد الضحايا البشرية التي سيتسبب هذا الأمر في وقوعها بين عساكرنا محدودًا.

انطلقت أولى المجموعات إلى مهمتها في الواحدة من صباح يوم السبت، مستقلة طائرة عمودية؛ للانقضاض على نقطة «رجم الخراب»، أبعد نقطة من مقر قيادتنا، بينما خرجت آخر المجموعات بعد ساعتين من ذلك؛ لاعتقال حاجب سيادة اللواء، قائد الفرقة،

الذي أثار اسمه ريبة سيادته؛ فأمر بالقبض عليه، وإرساله -مع الموقوفين- إلى قيادة الفرع، فيتساوى الجميع أمام العدالة، مثلما قال في كلمة ألقاها؛ احتفالًا بخلاص فرقتنا من عناصر الشر المتغلغلة فيها، وردًا على من ذكّروا سيادته بوجود الحاجب أمام باب مكتبه، طوال نهار وليل البارحة.

أجرت فرقتنا إحصاءً بعدد المشبوهين في قطعاتها، فتبين أنه كان بيننا حوالى ثلاثمئة جندي، وصف ضابط وضابط، من ذوي الأسماء المريبة، أرفعها رتبة العقيد، عربي العاصي، قائد أحد ألوية المشاة المحمولة، الذي دعاه سيادة اللواء بالهاتف الخاص إلى اجتماع عاجل؛ لبحث دور فرقتنا في القتال الاقتحامي ضد العدو، وأصدر، بعد أن أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها، أمرًا باعتقاله، أمام العساكر، لحظة يترجل من سيارته؛ ليكون عبرة للمتواطئين والمتآمرين جميعهم.

خصصت الفرقة، بتوجيهات من قائدها، براكة كبيرة لتوقيف هذا العدد الكبير من المجرمين الذين كانوا بين ظهرانينا، ونحن في غفلة عنهم، وأشعرنا وجودهم بيننا بالعار والخجل، ودفع قائدنا إلى الإشادة -في كلمته التوجيهية- بالقيادة التي أنشأت من أبنائها رجالًا، يرون ما لا نراه، ويسمعون ما لا نسمعه، يسهرون على أمننا وسلامتنا، من دون أن نحس بهم، أو نساعدهم، أو نشعر بوجودهم.

إن فرقتنا في يقظة تامة، تنتظر قراراتكم وتوجيهاتكم، وقد احتقنت صدور منتسبيها بالحقد على من خرج على ولائها للقيادة الحكيمة، وتذكر، في هذه المناسبة، أن لديها، كغيرها من فرق وألوية

جيشنا الباسل، أقسامًا ومراكز للتحقيق، مجهزة بأدوات متطورة، تعمل فيها عناصر وكفايات ذات تجارب متقدمة في الحقل الأمني، وأنها على استعداد للقيام بما تكلفونها به من مهمات.

رئيس أركان الفرقة الثالثة المحمولة

العميد أسعد المصاحب

التقرير الرابع

وصلنا في الساعة الرابعة من فجر يوم الحركة التصحيحية المجيدة إلى مقر قيادة الفرقة الثالثة المحمولة، ووجدنا قائدها وأركانه في انتظارنا، ويد كل منهم على زناد مسدسه أو بندقيته. وقد سبقت وصولنا موجة شائعات، انطلقت في جميع الاتجاهات، وأحدثت موجة من الذعر، دفعت بأحد الحراس إلى إطلاق النار على سيارتنا التي اقتحمت المقر من إحدى البوابات الجانبية القريبة من قيادته، ولولا وجود أحد الضباط قرب الجندي، لكنا أول ضحايا المؤامرة اللئيمة التي تتربص بثورتنا. أوقفنا سياراتنا أمام مقر القيادة، فأمر قائد الفرقة باعتقال مطلق النار الذي لا يُستبعد أن يكون عرباويًا من عناصر المؤامرة. وقد لفت نظرنا آنئذ وجود دبابتين، رابطتا قرب الباب الرئيس، مثلما يحدث أيام الانقلابات والشدائد الكبرى.

ومع وصولنا إلى القيادة، بدأ توارد المجرمين؛ فأمرنا بوضع كيس في رأس كل منهم، وتقييد يديه وراء ظهره، وربطه من إحدى ساقيه إلى ساق موقوف آخر، قبل إرغامه على الاستلقاء على بطنه فوق التراب، ويداه مرفوعتان فوق رأسه من الخلف. أمرنا -أيضًا- بتجريد المجرمين من ساعاتهم ونقودهم وخواتمهم ونظاراتهم ووثائقهم الشخصية، وعرينا -كذلك- أبدانهم، وانتزعنا أحذيتهم من أقدامهم، وأمرناهم بتكرار أقوال، تحط من قيمتهم وتحطم مقاومتهم، وتُدخل الخوف

إلى نفوسهم، وأخيرًا وزعنا مجموعات من الشرطة العسكرية بينهم، عرضتهم لمرات متلاحقة من الضرب المتواصل بالعصي والأسواط، لم تستثن منهم أحدًا، ضابطًا كان، أم جنديًا، أم مجندًا.

وعند الفجر، كانت قوافل المتآمرين في طريقها إلى قيادة الفرع في العاصمة التي وجهتنا إلى ضرورة الإسراع في نقلهم؛ لما للتحقيق من طابع عاجل، ولأن القيادة ستعرج على المؤامرة في الخطاب الذي ستلقيه في احتفالات الثورة المجيدة عصر اليوم، حين ستوجه أصابع الاتهام إلى جهات داخلية وخارجية معينة، سيعترف المجرمون بوقوفها وراءهم، في أثناء ظهور بعض زعمائهم على شاشات التلفاز؛ للإدلاء باعترافات تفصيلية، تؤكد ما يدبره الأعداء ضدنا في ليل. لقد شرع رجالنا التحقيق في السيارات المخصصة لهذه الغاية، وكانت قد سبقتنا إلى معسكرات الفرقة الثالثة المحمولة، وهي تنهب الأرض نهبًا، وكنا -نحن- نعمل في انتزاع الاعترافات المطلوبة من أفواه المجرمين، ولحظة غادر فيها مقر الفرقة، قال قائدها لنا بصوت يطفح بالاعتزاز: سنذهب الآن لننام مطمئنين، لأن عيونكم الأمنية تظل مفتوحة، ثم تساءل بلهجة مازحة: أليس إنجازًا أمنيًا وعسكريًا كبيرًا أن يستسلم هذا العدد الكبير من المتآمرين المسلحين من دون مقاومة؟ وأخيرًا، وضع يده على كتف أحد رفاقنا، وسأله مداعبًا: ترى كم ستقضون من الأيام في ظلام الأقبية، قبل أن تبصر عينا الوطن نور الحقيقة؟

العقيد دحام أبو الحسين

رئيس لجنة التحقيق الخاصة

التقرير الخامس

بدأ تقاطر المجرمين على الفرع في الساعة الخامسة من فجر اليوم، فكان رجالنا في انتظارهم، وبيد كل منهم آلة، أو أداة، لمثل هذه المناسبة، وقد توزعوا في صفين متقابلين، بينهما ممر ضيق، يعبر المتآمر والكابلات والقضبان والمطارق والمسامير المسنونة والمشحوذة، والآلات الجارحة والثاقبة، والحامية والباردة، تنهال على جسده القذر، كان المجرم يُؤمر بنزع ثيابه؛ ليصير عاريًا كما ولدته أمه، قبل أن يُلقى به عند بداية الممر، حيث يتلقاه عنصران من الفرع بالماء البارد والحار مدةً، ويعالجه أربعة من أشداء الرجال بما في أيديهم من أدوات ووسائل، لا يفهم لغة غير لغتها، وهم يسوقونه نحو الممر الإجباري، حيث تنتظره كوكبة من فرسان الوطن، وحفظة أماناته، يعمر قلوبهم حقد مقدس على الأعداء، يحثهم على تهشيم رؤوسهم المطأطأة، وأعناقهم المحنية، وتستفزهم استغاثاتهم وتوسلاتهم، فيمعنون في معالجتهم بما في أياديهم من أدوات تعذيب، بينما تتدفق دماؤهم من أبدانهم، ويفقدون القدرة على الزحف، ويخال الواحد منهم أنه هالك لا محالة، ولن يصل إلى نهاية الجدارين المنتصبين حوله حيًا؛ فينهار بين الأيدي والأرجل التي تتلاعب به، من أمام ومن وراء، لا يعرف أيها يتفادى وأيها يتلقى، إلى أن تخونه قواه، ويسقط تحت الأقدام التي تشرع في رفسه بقوة الحقد المعشش في قلوب أبطال الفرع. حين يفقد المجرم الأمل في أن تمتد يد لمساعدته، ويفقد القدرة على الزحف،

يتكوم على نفسه كدودة بائسة، عاجزة عن بلوغ نهاية ممرٍّ، تحول إلى نفق مميت، إن حاول الخروج منه، وجد فوجًا آخر من عتاة الرجال في انتظاره، يضربه، كما تقول التعليمات، «بطريقة كيفية وصاعقة، لا توفر من جسده مكانًا، ولا يقيدها وقت أو أمر أو اعتبار».

بعد استقبال المجرمين، أعطينا كل واحد منهم رقمًا، أفهمناه أنه صار اسمه الجديد، إن استُدعي ذكر رقمه، وإن سُئل عن اسمه أنكره، وانتمى إلى رقمه، وإن دخل المرحاض، أو خرج منه، صرخ، ذاكرًا رقمه، ومتى ذهب إلى الشيطان زال هو، وبقي لدينا رقمه. وقد بينا لهؤلاء المجرمين أن أرقامهم امتياز لا يستحقونه، منحهم إياه سيد الوطن، الحريص عليهم أكثر من حرصهم على أنفسهم، وأعلمناهم أننا كنا سنطلق النار عليهم، ونرميهم في واحدة من القبور الجماعية الكثيرة، لولا أن رحمة القيادة التي منعتنا من تحقيق رغبتنا.

وزعنا المعتقلين على زنزانات فردية، بعد أن رششنا أرضها الإسمنتية بماء بارد، وسحبنا منها الأغطية العازلة والبطانيات، وتركنا القيود في أيديهم المقيدة وراء ظهورهم، والعُصَب الجلدية على أعينهم، قبل أن نبدأ باستدعائهم، واحدًا بعد آخر؛ للمثول أمام لجنة التحقيق.

العميد فاتح الشيخ

رئيس سجن فرع التدقيق

تقرير رئيس قسم التحقيق

في ضوء الاهتمام الذي يوليه جهازنا لأمن الوطن، ومكتسبات المواطن، والمؤامرة التي حاكها في ظلمة الخيانة مجرمون، باعوا أرواحهم للأعداء، شكلنا لجنات تحقيق أمرناها بالعمل من دون توقف؛ لإعداد ملف بوقائع المؤامرة الدامغة، توافينا بحيثياته، أولًا بأول؛ لننقلها -أيضًا- من دون إبطاء إلى مراجعنا العليا التي نقل إلينا ضباط الارتباط أمرها بالإسراع في إنهاء عملنا، وإجراء اتصالات موسعة مع فروع الأمن الأخرى؛ لتزويدنا بما لديها من معلومات عن المجرمين، لكننا لم نتلق شيئًا بعد، وربما كنا لن نتلقى شيئًا؛ بسبب السرية التي وضع بها المجرمون خططهم، وأحاطوا بغموضها حركاتهم، ونوعية الذين أشركوهم في المؤامرة، ولم يسبق لجهاز الأمن أن اعتقل، أو أوقف، أيًا منهم، في أثناء المؤامرات السابقة الكثيرة التي استهدفت وطننا ومواطننا.

تقرير لجنات التحقيق

اجتمعت لجنات التحقيق بقرار من قيادة الفرع؛ لكشف حلقات، وتفاصيل، المؤامرة العرباوية على أمن وسلامة وطننا، وتدارست الظاهرة الخطِرة التي واجهها الأمن أول مرة، منذ قيامه، فقد رفض المتآمرون الإفصاح عن أي جانب من جوانب نشاطهم واتصالاتهم، وأظهروا قدرًا من العناد، مكنهم تحييدَ الوسائل والأساليب المستخدمة لمساعدتهم في الاعتراف بالحقيقة. في ما يلي بعض تفاصيل ما واجهنا؛ فقد كنا نبدأ العمل، -كعادتنا- بثبيت الأكياس على رؤوس المجرمين، وطرح أسئلة تمهيدية، تقيس حالهم المعنوية، واستعدادهم العقلي، وقابليتهم للتعاون معنا، وقد فوجئنا -بعد لحظات من بدء التحقيق- أن العرباويين فقدوا ملامحهم، على الرغم من أنهم دخلوا الفرع بملامح تشبه ملامح غيرهم من المواطنين، وفوجئنا بأنهم لم يبدوا أي استجابة للجهد الذي بذلناه؛ لدفعهم إلى الإدلاء بتفاصيل المؤامرة، واتخذوا سلوك من يعجز عن فهم ما يجري حوله؛ حتى ظننا أنهم يصطنعون موقفهم لتضليلنا، أو تدربوا على الظهور بمظهر بُلهاء فقدوا عقولهم؛ لظنهم -ربما- أن ذلك قد ينجيهم من العدالة. إن هذا الوضع الذي لم ينفع فيه الإقناع بالوسائل العادية، من مثل الدولاب، والتيار الكهربائي، والعصي، والشبح، والكرسي الألماني، أجبرنا على الأخذ بأساليب أخرى، من مثل تعليقهم من أياديهم بمراوح تتدلى من السقوف، ورش الماء البارد

والمغلي على أجسادهم، وتسديد ضربات مركزة، ومتلاحقة، بالعصي والسياط، إلى ظهورهم، وإرسال التيار الكهربائي في أعضائهم التناسلية وأقفيتهم، وحفر صدورهم بالمثاقب، وانتزاع أظفارهم. كان المتآمرون يغيبون عن الوعي، من دون أن يقولوا شيئًا، وكانوا يرفضون الإجابة، حتى عن أسئلتنا العادية، عن أعمارهم وأسرهم وأحوالهم. وضعناهم على الكرسي السوري الذي يكسر الظهر، وسطحناهم فوق بساط الريح، وأطعمناهم فراريج من أجسامهم، شويناها على نار الكوابل الهاتفية المجدولة من قضبان رصاصية، وعلقناهم من أيديهم وأرجلهم، كالذبائح، شككناها في أسياخ ضخمة، حركناها في اتجاهين متعاكسين، جعلت يدا العرباوي وجذعه يدوران في اتجاه، وساقاه ومؤخرته في اتجاه، لكنه بقي مصرًا على عدم الاستجابة لوسائلنا الإقناعية. استخدمنا -كذلك- كتلًا خشبية ضخمة، زودناها بمسامير حادة، ضغطنا بها على ركبهم التي لم تلبث أن انخلعت وخرجت من أماكنها، غير أنهم واصلوا الاستهانة بحياتهم، وأمعنوا في تحدينا بصمتهم، شنقناهم، وأدخلنا زجاجات مكسورة الأعناق في مؤخراتهم، ثم ألقيناهم فوق صفائح من حديد محمى، بقوا فوقها إلى أن تصاعدت رائحة لحمهم المحروق، غير أن جهدنا ذهب عبثًا.

استدعت لجناتنا المشتركة أطباء الفرع، النفسيين والجسديين، المدربين على معالجة حالات التحقيق الصعبة، أو المستعصية، علهم يجدون حلًا للمعضلة المتحدية، وبعد أن تشاوروا ساعات طويلة، انطلقوا إلى الجثث الهامدة المرمية على الأرض، ينعشونها؛ كي

تستجيب لتحقيق جديد، ثم بعد ساعات أخرى من العمل، عجزوا عن تفسير اختفاء ملامح وأحاسيس هذا العدد الكبير من المتآمرين. كان الأطباء ينظرون إلى المشهد، ولا يصدقون أن وسائلهم -أيضًا- عجزت عن إنطاق هذا الكائن الأبله المسمى «عربي»، على الرغم من أنها أنطقت رؤوسًا بدت كالحجارة الصماء، كما قال كبير مستشاري السيد العميد، رئيس الفرع.

أخيرًا، انصرفنا، والأطباء، إلى اجتماع عمل خاص، خرجنا منه بالتقرير الذي نضعه أمام ناظريكم، وهو أن المتهم أضاع حواسه، كما يبدو، منذ زمن طويل، قبل أن يدخل إلى الفرع، وأنه لن يستجيب لأي أمر، بما أنه كتلة لحم صرف، لا حاجات لها، تشبه الجسد البشري، وما هي بمثله، بل هي غائبة، وإن بدت حاضرة، ميتة، وإن لاح أنها حية، لا تسمع، ولا ترى، ولا تنطق، تأكد لنا -خلال الأيام القليلة الماضية- أن من المحال إدخال أي فكرة في رأسها، أو انتزاع أي فكرة منها؛ لسبب بسيط هو أن عرباوي يعيش بلا أفكار. وبناء على كل ما سبق، نرى بأن علينا إعلام القيادة بأن المتآمر يمثل حالة عامة، تتلبس جسدًا فرديًا، زالت خصوصيته، وتلاشت مداركه، ونتعامل معه اليوم من دون أن ندري ما علينا فعله به، لأنه يعيش بقوة الواقع، ولا يعيش بقوة رغبات يفتقر إليها، وإرادة لا يمتلكها، تعاملنا معه كائنًا متآمرًا، لكن تحقيقاتنا أثبت أنه فقد إحساسه بأي شيء، وحاجته إلى أي شيء، وأنه لا يرتبط بقيم أو يتبنى مواقف، وإنما يشبه حجرًا يتدحرج من جبل شاهق، فهو مثله، لا يملك من أمره شيئًا، ويتجه نحو الهاوية باندفاع صخرة، لن يحول شيء دون وصولها إلى قاعها

السحيق؛ لذلك، توصي لجنتنا بألا يستمر التحقيق معه، شخصيًا، وأنْ يُنصرف إلى كشف الحالة العامة التي يمثلها، وتهدد تهديدًا جسيمًا أمننا، ونظامنا العام، وحياتنا بمظاهرها ومضموناتها كافة. إن هذا المتآمر أخطر تحدٍّ واجهناه؛ لكونه يتآمر ساعة يشاء، وينسحب إلى داخله ساعة يريد، ملحقًا بنا الأذى في المرة الأولى، ومهددًا وجودنا في الثانية.

تقرير لجنة الفرع الخاصة

واجه فرعنا اليوم تحديًا لم يجابه بمثله من قبل، عندما تأكد لنا أن عرباوي، المتهم في المؤامرة الكبرى ضد قيادتنا وحزبنا، كائن بلا ملامح أو صفات، وأن بوسعه مواجهة أي تحقيق معه، بالامتناع عن الإدلاء بأي اعتراف، وبتحييد أي وسيلة يمكّننا استخدامها في إقناعه بالإفصاح عما يضمره؛ على الرغم من إمكاناتنا المتطورة، وتقنياتنا الحديثة، المشهود لها، واستقدامنا -أول مرة في تاريخ الفرع- محققين من الأفرع الأخرى، عسى أن تفيدنا خبراتهم.

يرجع الوضع الخطِر الذي واجهناه إلى ما يمكن عدّه تطورًا نوعيًا في الجهد الموجه نحو تقويض وجودنا، وتهديد أمننا. إنها ظاهرة المتآمر الذي تضعه صفاته خارج عالمنا، على الرغم من مظهره البشري، إن تأملناه من زاوية شكله الخارجي. إن هذا المتآمر الذي يتلبس هيكلًا فارغًا، يفتقر إلى روح البشر وعواطفهم، ويفتقر إلى أي نوع من الوعي والمعرفة، قطع صلاته؛ حتى بأمثاله من المخلوقات، وصار صندوقًا مقفلًا، أغلق نوافذه دون عالمه الخارجي، وقطع صلاته بصندوقه الداخلي الخالي منه. لقد وضعَنا هذا المتآمر أمام معضلة تطرح علينا تحديات تطال أسس وجودنا، وستقوضه تقويضًا تامًا، إذا لم ننجح في مواجهته، أو في إخراجه من موته، ورده إلى ما كان عليه قبله، فردًا مطواعًا، همه الوحيد أن يبقى بعيدًا من قبضتنا،

أو أن يكون رهن إرادتنا، وطوع بناننا. نقترح؛ لهذه الأسباب، رفع الأمر إلى قيادتنا الحكيمة؛ لاعتقادنا بأن وجوده لم يترتب على عمل فرعنا، فحسب، وأن إخفاقنا في التصدي له ليس مسألة أمنية صرف، بل هي من صلاحيات القيادة التي يخضع جميعنا لها، ولها أبعاد لا ندركها، ولا تقع في إطارنا، بطبيعته التنفيذية؛ يشجعنا على تقديم توصيتنا أن العرباويين اتخذوا -جميعًا- الموقف ذاته، وأثاروا خوفنا من ظهور متآمر، يقع خارج قبضة الأمن وعالمه، على الرغم من أن خطاب قيادتنا الحكيمة الذي سمعناه -باهتمام شديد- عصر اليوم، ساق أدلة قاطعة على تآمره، وانضوائه تحت صلاحيات جهازنا.

قبل رفع هذه التوصية، جمعنا أطباء وضباطًا من فروع العاصمة الأمنية كافة، فأجمعوا -بعد اطلاعهم على مجريات التحقيقات- على تأكيد ما كنا قد توصلنا إليه، وهو أن المتهم بارح النوع الإنساني، في كل ما يتعلق بالحاجات والأفكار والمشاعر، سواء أكانت من صنعه، أم من صنع غيره، وأنه ليس، ولا يمكن أن يكون، سياسيًا، أو صاحب رأي، أو أن يحمل قضية، ويسعى إلى معرفة أي شيء مما يدور حوله. لقد انسحب من الحياة، على الرغم من أن إطلاق وصف الحياة على حضوره الجسدي ليس صحيحًا، أو ملائمًا، بدلالة موقفه -قبل مؤامرته- مما يواجهه في حياته اليومية، وغيابه عن أي نشاط عام أو خاص، وإقلاعه عن حضور احتفالات واجتماعات الوطن والثورة والحزب، وعن ارتياد الأماكن العامة، بما في ذلك الحدائق، وإحجامه عن إعلان رغبته في تغيير أي شيء، أو في استمراره، وانعدام أي رابطة بينه وبين واقعه والواقع العام، وفقدانه الاهتمام بذاته، وبأسباب ما

هو فيه. لو كانت لدى عرباوي مشاعر من أي نوع، لقلنا إنه راض عما هو فيه، غير أن تحرياتنا أظهرت أنه يرى ما يجري، ما إن يمر أمام ناظريه، وليس لاهتمامه به، أو بنتائجه.

عرف فرعنا في الماضي حالات من أصحاب القناعات الجاهزة، والأحكام المتسرعة، ممن أطلقوا على أنفسهم لقب «مناضلين»؛ فعجزنا آنذاك -أيضًا- عن انتزاع الاعترافات من بعضهم، لكن الأمر كان يتعلق بقلة منهم، تُعدُّ على أصابع يد واحدة، وليس بظاهرة واسعة الانتشار، ومتحدية، كالتي بين أيدينا؛ فتلك القلة كانت من صنع قناعات خاصة، اختارتها بإرادتها. أما الآن، فليس للمتهم قناعات، إضافة إلى أنه ليس من صنع نفسه، ونعتقد أنه صنيعة أحوال، أنجبها تطور يوشك أن ينقطع بظهوره، كأن عملنا الكبير كان يتجه، من دون أن ندري، نحو صنعه؛ ليضعنا أمام كائن آمنا دومًا بأنه ضروري لاستمرارنا، فإذا بوجوده بيننا يجعله نقيض وجودنا، وعلامة على بدء زوال أحوالنا، وخطرًا يطرح علينا سؤالًا محيرًا: هل نسمح لأضعف مخلوقاتنا أن يكون أعتى سلاح يوجه إلى صدورنا؟! وهل نسكت عن التحدي الداهم الذي نفرَ في وجوهنا ساعة أنْ غابت سائر التحديات الأخرى التي واجهتنا؟! وهل يُعقل أن تتلازم قوته وضعفنا في شخصه الذي لا نعرف كيف نصفه، وأن تعجز قوتنا، لحظة أن بلغت ذروتها، عن مواجهة ضعفه في دركه السحيق؟!

ملاحظة أولى

اقترحت لجنة الفرع الخاصة إرسال مجموعات بحث واستقصاء؛ لدراسة أوساط عرباوي ومنبته الاجتماعي، ولكشف الخبايا والأسباب التي أوصلته إلى ما هو عليه: ماذا يمنع أن يكون عرباوي إهابًا خارجيًا لحالة متفجرة، فحسب، يحجب وجهها الحقيقي عن أنظارنا غلاف كتيم، لا تراه أعيننا أول وهلة، يتطلب تمزيقه تدقيقات خاصة، تنجزها أيد خبيرة، من ضباط الفرع؟

لقد اختارت اللجنة عناصر من خيرة ما يتوافر لها من خبرات، وأرسلتها إلى الوحدات العسكرية، حيث خدم العرباويون؛ لدراسة أضابيرهم، والوقائع التفصيلية المتعلقة بهم، ثم تنطلق -بعد دراسة ملفاتهم- إلى القرى والبلدات والمدن التي جاؤوا منها، وتكشف أغوار تلك البيئات التي انتجت المتآمر الخطِر، وتفضح ما استغلق من خبايا نفسه الحاقدة.

ملاحظة ثانية

أوعزت لجنتنا إلى قسم الفرع الفني بتركيب أجهزة تنصت حساسة في زنازين وقواويش العرباويين، عل التقنية الحديثة تجد مدخلًا إلى النفوس المريضة، لكن النتيجة كانت مخيبة للآمال؛ إذ إن الأجهزة لم تلتقط سوى همهمات غامضة ومبهمة، يُرجح أن تكون

نتيجة المعالجة الجسدية التي تعرضوا لها في الفرع؛ وفي الوقت نفسه، ألبسنا بعض عناصرنا عمائم وجببًا، وأدخلناهم إلى الزنازين، بعد أن أهنّاهم وضربناهم، على مرأى من العرباويين؛ لإيهامهم بأنهم من جماعتهم، وقد نشر هؤلاء ما أوعزنا به إليهم، من أقوال وأفكار، وحاولوا التأثير في المتآمرين، والتغلغل إلى دواخلهم. بيد أن جهدنا ذهب سدى، فاضطررنا إلى وقف المحاولة، بعد أن أفرط بعض عملائنا في سبّ نظامنا وشتمه، فأنهينا مهمتهم.

إلى مكتب الأمن القومي

بعد الاطلاع على التقرير الذي أعدته لجنة الفرع الخاصة، نرى ضرورة لفت الأنظار إلى التباين المثير للشبهات، بين نظرة بعض العاملين في خدمتنا إلى الشؤون العامة، والخط العام الموجِّه لدولتنا، ونؤكد أن الاستنتاجات المستخلصة من المؤامرة لا تتفق -في أي حال- مع الوقائع التي أرسينا دعائمها طوال السنوات المنصرمة، وأنها تتضارب أشد التضارب مع التوجهات العامة، والخاصة، التي أصدرناها في المناسبات المختلفة، وطنية كانت أم قومية، حزبية أم عامة؛ لذلك، قررنا إحالة كتبة التقارير إلى دورة تدريبية مكثفة، يتلقون خلالها -من جديد- المبادئ الأساسية الموجهة لسياستنا، ومراقبتهم؛ فربما أخفت لهجتهم الاستسلامية ما هو أكثر من الجهل بسياستنا، وكان التهويل بالظاهرة العرباوية محاولة لابتزازنا، ووضعنا في أجواء تخويفية، يراد بها إكراهنا على اتخاذ قراراتنا تحت ضغوط معنوية، اعتدنا التصدي لها، ولمصادرها، بالإرادة الحازمة والعزيمة الصلبة.

ترى؛ ما «عربي»، أو «عرباوي»، وما «العرباوية»؟ إنه ليس كائنًا عجيبًا، أو غريبًا، كما يصفه تقرير اللجنة، بل كيان واقعي، أنجبه تخطيط محكم، أظهرت تحقيقاتكم المدى الذي بلغه، والنجاح الذي أحرزه. ربما كان بينكم من لا يعرف حجم الجهد المبذول؛ للوصول إلى كائن هذه حاله، وقد يوجد -على الدوام- من لا يفقه حاجتنا إلى

كائن مثله، كان همنا الوحيد دومًا أن يكون بلا همّ، وفكرتنا الأساس أن يكون بلا فكر، وأن يكون غيابه علامةَ حضوره الفارقة، يحدق في الحياة، فلا يراها، وتمر به الأحداث، فلا يشعر بها، شفّت نفسه وراقت؛ فما عاد يحس بحسد أو طمع، أو ظلم وقهر، فهو -كما أردنا له أن يكون- طهورٌ ليست عينه على هذه الدنيا، ومتعها الزائلة، بل يعيش في عالم من الخواء الروحي، صنعناه له، فوجد فيه ملاذه؛ أبعدَ هذا تتحدثون عن تحديه لنا، وخطره علينا؟! لقد وجهنا -دائمًا- بالتركيز على إفراغ حياة المواطنين الخاصة من أي اهتمام عام؛ ليقلعوا عن التدخل في ما لا يعنيهم من الشؤون العامة، ويغرقوا في توافه فردياتهم، وعندما اكتشفنا أن خواء حياة الإنسان الخاصة يقوده إلى دس أنفه -من جديد- في ما لايعنيه من شؤون، اتخذنا خُططًا تكفلت بهدم كيانه الخاص أيضًا، وطفقنا نترقب النتائج، من دون معرفة ما آلت سياساتنا إليه؛ فإذا بتحقيقاتكم تزف لنا بشرى النجاح، وتخبرنا بوجود عرباوي بين ظهرانينا، كائنًا ترك لنا كل شيء، حياته الخاصة وفرديته، حاجاته وأفكاره، عواطفه ورغباته، وعلى الرغم من ذلك، فهو غير نادم، أو متذمر؛ فهل يصحّ ألا تروا الأمر إلا من منظار الاعتراف الضيق، وترفضوا النظر إليها من زاوية النظام ومصلحته العليا؟! اعلموا أن عرباوي هو إنجازنا الأكبر، وأن الخطر كله في الأفكار البالية التي تحملونها عنه، بعدّه فردًا من شعب، يجب أن تكون له أفكار، ويكون النظام مهددًا في غيابه، وفي أحكامكم الجاهزة عن ضرورة تأييد أغلبية المواطنين للسلطة؛ دعونا نذكركم -آخر تذكير- بأن جذور نظامنا ليست في الشعب، بل في القيادة، وأن القمة التي تدير عملكم هي القاعدة، والحاضنة الوحيدة، لحياتكم

وحياة الشعب، فانظروا من عرباوي، فصاعدًا، إلى أمورنا بهذا المنظار الدقيق، والصحيح، واعلموا أن الدول لا تقوم على الإرادات العامة، بل على القرارات الصحيحة، ولا تعيش من تناغم القمة والقاعدة، بل من الأدوات والوسائل اللازمة لفرض ما تراه القيادة على أتباعها، والقمة على ما تحت أيديها من بشر، يستمدون وجودهم منها.

نغتنم هذه الفرصة؛ لاتخاذ قرارات، تنفذونها من دون إبطاء، تحوّل الأنموذج العرباوي إلى حال سائدة، وشخصه إلى اسم نوع لكائن نباهي به العالمين، ونجعل منه ركيزة نظامنا الوحيدة؛ لذلك، نأمر بإخراج هذا المواطن الصالح من المعتقل، وإعادته إلى مواطنه، ونوصي بتعميم أنموذجه على مواطنينا في أقرب وقت، ونقرر عدّ يوم اكتشافه عيدًا وطنيًا، تعطل فيه دوائرنا الرسمية، وتقام الاحتفالات الشعبية، وتكتب صحافتنا تحقيقات ومقالات مسهبة عن السبق الفريد الذي حققناه، وتجري مقابلات مع الضيوف الذين سندعوهم إلى التعرف إلى إنجازنا النادر. إن عرباوي هو قصدنا الأخير، ومآلنا الأسمى، ومواطننا المثالي، فلنقم له التماثيل، ولنقدم له الأضاحي، ولنحتفل بمأثرته.

ملاحظة: يُؤمر الضباط الذين أوفدوا لدراسة منابته الاجتماعية بالعودة إلى أماكن عملهم، ويُحتفظ بالتقارير التي كتبوها في ملف خاص، يُرسل إلى أرشيف القصر الجمهوري.

القسم الثاني

من تحقيقات العقيد عاصي الخالد في بلدة دير الجسور

ما إن عدت من قرية «مزار الدب»، قرية آبائي وأجدادي، حيث كانت القيادة قد طلبت إليّ مواصلة التحقيق في مسألة على قدر كبير من الخطر، أمتنع عن التطرق إليه في تقريري هذا السري جدًا، والخاص جدًا؛ حتى تلقيت أمرًا بالسفر إلى بلدة اسمها «دير الجسور»، مكلفًا بدراسة ما أسماه مدير الفرع «الخلفيات الاجتماعية التي أنجبت واحدًا من عتاة المتآمرين، المدعو عربي الجسري، الملقب بعرباوي».

قلبت في ذهني أسماء المناطق والبلدات التي أعرفها في بلادي، أو تلك التي مر ذكرها خلال التحقيقات مع مجرمين، تحدروا من أمكنتها المختلفة، فلم أجد بينها بلدة أو قرية اسمها «دير الجسور»؛ فقصدت مكتب المشرفين في الفرع على التطور الجغرافي للوطن، أستعلم عن «الدير» وأوضاعها، فإذا بهم يخبرونني بأنهم لم يسمعوا -هم أيضًا- باسمها من قبل؛ فخلتهم -أول وهلة- يمازحونني، أو يمتنعون عن تقديم المعلومات التي بحوزتهم إلي، وترددت بين أن أصدقهم، وهم الذين يعرفون سورية شبرًا فشبرًا، أو أنصرف إلى مكتبي، ومنه أوجه كتابًا رسميًا إليهم، ممهورًا بتوقيع وخاتم السيد مدير الفرع، أطلب فيه تزويدي بما لديهم من معلومات عن الدير. لكنني لم أنفذ ما كنت عازمًا عليه؛ لأن أحد الضباط توجه إلى خزانة مصفحة، فتحها وأخرج منها كتابًا، فتحه وأخذ يقرأ فيه بصوت خافت، يصعب سماعه، وهو مكب عليه؛ ليحجبه عن أنظاري. وبعد دقائق، وصل فضولي خلالها إلى ذروته، رفع رأسه، والتفت إليّ، وقال بصوت بدا لي معدوم الاكتراث: «ليست «دير الجسور» بلدة، بمعنى الكلمة، بل

هي أقرب إلى معزل، يقع على الحدود مع البلد المعادي، يتطلب السفر إليه ساعات من السير الرتيب في أرض صحراوية مكشوفة، تشبه منبسطًا إسفلتيًا، تحرقه أشعه شمس وهاجة.»، ثم توقف عن الكلام، وهو يغلق الكتاب، ويهم بإعادته إلى الخزانة المصفحة، فسألته: أهذا كل ما لديكم؟ إن هذه المعلومات تزيدني جهلًا بالدير، بدلًا من أن تجعلني أعرفها؛ أليس في كتابكم تفاصيل معينة عن سكانها، وعددهم وأحوالهم؟ فأعاد الكتاب إلى الخزانة، وأردف قائلًا: «ليست «دير الجسور» تابعة لفرعنا؛ لذلك، لا نعرف عنها إلا القليل جدًا، وهو ما أخبرتك به.»، ثم أغلق الخزانة، وعلق بلهجة متعاطفة وساخرة في آن معًا: «الشيء الوحيد الذي أعرفه متيقنًا- هو أنني لا أحسدك على مهمتك، ولا سيما في مثل هذه الأوقات الصيفية من السنة».

ركبت سيارتي الرسمية، واتجهت إلى هدفي المجهول، من دون أن يؤذن لي؛ حتى بوداع زوجتي وأطفالي، فبلغته بعد رحلة شاقة، اخترقت خلالها قفارًا ووهادًا، لم يخطر في بالي -إطلاقًا- أنها قد تكون من الوطن، أعاد عبورها إلى نفسي التي أرهقتها حوادث «مزار الدب»، ووحشة كانت تعذبني منذ وقت طويل، جعلتني أحسب أنني في الطريق إلى خارج الدنيا، أغذ السير إلى غرباء، لم يسبق لي أن عرفتهم، في بلاد لم أعرفها أيضًا، ولا أعرف كيف سيكون عليّ التعامل معهم.

كانت حوادث «مزار الدب» ترهق عقلي المتعب، وتتلاعب بأفكاري، وكنت أشعر بأن ما وقع فيها لن يبقى بعده شيء على

حاله، بالنسبة إلى أمثالي من العاملين في الفرع، والمرتبطين به، وما أكثرهم، وكنت على ثقة -أيضًا- بأن ظهور «حمدان الأبرص»، هادي «المزار» المعصوم، سيكون بداية تحول، سيعصف بحياتي ووضعي، وحياة أقراني ووضعهم، ومن أعرفهم في الجيش والفرع، وسيطيح بما حصلت عليه أجيال من منزلة وثروة، في أعقاب صراع مضن، عرفت قبله حرمانًا وبؤسًا قاسيين، كابدتهما خلال سنوات لا نهاية لها، سبقت مغادرتي «المزار». كنت أقود الآن سيارتي في طريق موحشة، تخترق قفرًا منبسطًا، بدا لي من دون نهاية، شككت بوجود قرية في آخرها، وقلت في نفسي إنني سأعطيها اسما غير اسمها، هو «دير النهاية»؛ فأفزعني ما تشي به خاطرتي من ضعف واستسلام، وجعلني أقرر ترتيب أفكاري، وتنظيم مهمتي، علني أستعيد بعض هدوئي الروحي والعقلي، أواجه بواسطته مهمتي الغامضة، وعرباوي الذي بدا لي نوعًا من العجاج، منتشرًا في كل مكان بين السماء والأرض، على الرغم من أن القبض عليه ضرب من المحال. كنت في حاجة إلى الابتعاد عما أصاب سمعتي، بعد ما أسماه خصومي في الفرع «فشلي في الوصول إلى أي شيء مفيد، على الرغم مما قُدم إليّ من عون، خلال تحقيقاتي في حوادث المزار». وعلى الرغم من أنني أحسست بالغضب؛ بسبب ما انتابني بعدئذ من شك في قدراتي، وشعرت بصعوبة لا مثيل لها، وأنا أشق طريقي نحو هدفي المجهول، وسط غبار صحراوي، يحجب الأرض والسماء، أيقنت معها أنني سفينة تائهة، يتقاذفها بحر هائج، يبعدني -تارة- من التفكير بما جرى لـ «المزار» على يديّ «حمدان الأبرص»، هاديها، ويقربني -طورًا- من حوادث تجربته الربانية في العاصمة، قبل أن تشدني هواجسي نحو لغز

«عربي الجسراوي»، ثم تلقي بي في متاهة هواجسي التي تهد كياني، وتعصف بعقلي.

كنت أوغل في الحر والغبار والإرهاق والقلق، فأزداد ابتعادًا عن نفسي، وأغرق -أكثر فأكثر- في تيه وقائع لا أتمكن من النفاذ إلى كنهها، تصنعها مخاوفي وظنوني، فأخالني نقطة تتقاطع فيها حوادث يخالط غموض مجرياتها وضوح أخطارها، وقعت في الأعوام التالية لخروجي من «المزار»، وأدت إلى ما أنا عليه الآن، ضابط أمن في فرع من أفرع المخابرات العسكرية، إلا أنها تكمن لنا في كل حدث، وتعترض سبيلنا في كل درب نسلكه، وتبقى ماثلة أمام أعيننا، على الرغم من أنها خفية المسارات، وتتشابك -بقوة- مع تطورات لا تنتمي إليها، وليست من جنسها، لكنها ما إن تمتزج بها؛ حتى تحمل قدرًا من الخطر، لا يقل عما تحمله هي.

احتلني شعور بالاضطراب، تداخل فيه ماضي المزار المعلوم بحاضر الدير المجهول، وبلغ التداخل حدًا أفقدني صفاء الذهن الضروري للتخلص من حالتي المنهكة، وزاد إرهاقي العقلي من تعب جسدي الذي كان يهدني هدًا، ويضاف إلى ما يستبد بي، ويفرغني من قواي، قاذفًا بي إلى جدار عجز صلد، يسد أي منفذ، يمكن أن يسوقني إلى خارج حصار، كان قد ضربه عليّ ولائي لمولانا «حمدان الأبرص»، وغموض عرباوي، و»الدير» الذي أخذ يفتك بي؛ حتى قبل أن أغوص في لجحه.

لا أدري لماذا اقتحمت فكرة سخيفة عقلي المنهك، لتقول لي: الماء الساخن علاجك، إنه كفيل بتخليصك من مشاعرك التي تتوطنك، ومن كتل الغبار الكثيفة التي اخترقت جسدك، وتسللت إلى روحك، وجعلتك سوداوي المزاج، متهافتًا وعصبيًا، تخلط معضلة «المزار» بهذا القفر، ومصاعب الحالة العرباوية، وتقنعك بأنك في سبيلك إلى فشل جديد، بعد أوقدت يد القدر نور «حمدان الهادي» في حياتك، وأطفأت ظلمة «عربي» صحوة روحك، وإشراقات فكرك.

ما إن بلغت دير الجسور، وأنهيت «مراسم» التعرف إلى رئيس فرعها الأمني، وولجت الغرفة التي خصصها لي في مبناه؛ حتى أمرت حاجبًا، أفرزه لخدمتي، بإعداد حمام ساخن، يزيل عني العرق والغبار؛ حدجني بنظرة كسيرة، وقال بصوت واه: لم تصل سيارة الماء من حدود البلد المجاور، سيدي، على الرغم من أننا أرسلناها إلى هناك منذ الصباح الباكر. سألته مستهجنًا: هل تحصلون على الماء من الدولة المعادية التي تسميها البلد المجاور؟! أجاب متلعثمًا كمن ضُبط، وهو يفشي سرًا خطيرًا: سيدي، أنا لست مسؤولًا عن الماء، ولا أعرف -بالضبط- من أين يأتون به. أخبرت سيادتك بما سمعته.

رفعت الهاتف؛ طالبًا إلى رئيس الفرع القدوم إلى ما أسميته «مكتبي»، ثم انصرفت إلى ترتيب بعض الأوراق الخاصة بي في أدراج خزانة قديمة، استندت إلى الجدار المقابل لطاولتي، ولما جاء الضابط، حياني بحسب الأعراف العسكرية، حين طلبت منه أن يجلس، جلس في ألفة واسترخاء على كرسي قرب الطاولة العريضة، فأشرت عندئذ

إلى مهمتي، وأعلمته بالترتيبات التي يجب على فرعه اتخاذها؛ لتسهيل ما أسميته «عملي الحساس»، وهو ليس أمنيًا، بمعنى الكلمة المألوف، وإنما هو عمل اجتماعي؛ وعلمي أيضًا، وترتبط به سلامة النظام. ما إن أنهيت كلامي؛ حتى نهض برشاقة، وكأنه يقفز عن الكرسي، واعدًا بتنفيذ «رغباتي». قالها بأسلوب جعلني أظن؛ لسبب لا أعرفه، بأنه خبيث، على الرغم من أنه لم يقل جملة واحدة كاملة، باستثناء الجملة الأخيرة، واكتفى خلال الوقت القصير الذي أمضاه في غرفتي بهز رأسه، وتكرار كلمات قليلة، مثل: نعم سيدي، حاضر سيدي، أمركم سيدي، عُلم سيدي، وهذا الانطباع جعلني أشعر بشيء من الندم؛ لأنني لم أكلمه بلهجة وظيفية آمرة، وأصرفه من مكتبي بحزم، على الطريقة الشائعة في علاقات ضباط الأمن الأعلى رتبة ممن هم أدنى منهم.

أمرت الحاجب بإحضار حقيبة ملابسي من صندوق سيارتي، وأنا أنهض إلى النافذة؛ كي ألقي نظرة على بلدة» دير الجسور»، تتيح لي تحسسها من بعد، جريًا على عادة ألوف رجال الأمن في مثل هذه الحالات، التي تقتضي ألا نتسرع في وصف ما نراه، ولا سيما إن كان كالدير، تجمّع بيوت صفيحية لا يشبه أي بلدة أو قرية سبق لي أن تحسستها بصريًا؛ فأغراني ما شاهدته، أو -بالأصح- ما لم أشاهده، بالقيام بجولة ميدانية، أتعرف خلالها إلى «الدير»، قبل أن يتسرب إلى سكانها من أكون، وما مهمتي، ويتحسبوا لي ولها.

لم أنتظر عودة الحاجب، بل خرجت من الفرع الذي لفت نظري أنه رابض فوق تلة، تحتل مساحة كبيرة من القسم الغربي لـ «الدير»، فبدت بيوت القرية التي رأيتها قبل قليل من نافذة الفرع متراصة، وقليلة العدد، يتكوم بعضها فوق بعض، أو يلتصق بعضها ببعض، وبدا المكان ضيقًا ومزدحمًا، يخلو من فراغات ومساحات داخلية كتلك التي نراها -عادة- في القرى والتجمعات الريفية، ببيوتها المتناثرة في كل اتجاه.

أغراني المشهد بالاندفاع نحو البيوت الجاثية تحت قدمي، لكن طبيعتي الأمنية انتصبت في وجه الإغراء، تذكرني بأنه ليس من الحكمة التعامل باستهتار مع الأمكنة، فهي كالبشر، بعضها غادر، وبعضها الآخر آمن ومسالم، تستقبلك ببشاشة، أو تكشر في وجهك، ترفضك أو تقبلك، فإن تعاملت معها من دون تحسب وحذر، فاجأتك باحتمالات غير مستحبة، جعلتك أسيرًا لها، وأوقعتك في مآزق تنزلق إليها من دون مقاومة. استيقظ في ذهني -توًّا- ما علمتنيه الأيام، وهو أن الحذر من الأمكنة صفة أساسية للشخصية الأمنية الناجحة، فوجدتني أقول لنفسي: كن حذرًا، سيادة العقيد، في مكان كدير الجسور، تعرف أنه أنجب واحدًا من أعتى المتآمرين المجرمين، تجهل عنه كل شيء، وربما كان يعرف عنك كل شيء.

كنت ما أزال واقفًا فوق تلة الفرع، عندما قررت استبدال زيارة بصرية أولية للمكان بالجولة في البلدة. هكذا، رأيت كتلة أسطح متكومة على نفسها، تغمرها الرمال حتى أسطحها، وكأنها ترفض نفاذ

أي شيء من خارجها إليها، فتساءلت هامسًا: هل انطواء البلدة على ذاتها يفسر سر انغلاق عرباوي على ذاته؟ وهل ضياع ملامحه ناجم من افتقارها إلى ملامح، استهواني الخاطر، وأغراني ببدء تحقيقاتي من هذه النقطة. غير أن الرمل المتكوم حول جدران البيوت لفت نظري إلى أن ما تقع عيناي عليه ليس بيوتًا، بل جحور وأقفاص مسقوفة بألواح من التوتياء، وليس قرية، مصداقًا لما قيل لي في الفرع، وإذا كان لها من وجود، فإنه اسم لا مضمون أو تجسد له، وما إن اختلطت انطباعاتي مع خواطري؛ حتى قررت التخلي عن الشروع في تحقيقاتي، انطلاقًا من جغرافية المكان، وأسهم في قراري هذا إيماني بخطأ بدء الدراسات الاجتماعية بالنتائج التي يجب أن تتوصل إليها، ولا سيما أن المكان نفسه خليق بمنعي من القفز إلى نتائج متسرعة، قد تقودني إلى أفكار بعيدة من الواقع والحقيقة؛ وبصراحة، لم أستغرب تخلق متآمر خطِر على الدولة من مكان بائس كـ «الدير»، تضطرك روائحه النتنة الواصلة إلى الفرع، في عليائه، إلى إغلاق أنفك؛ حتى وأنت وراء زجاج نوافذ غرفتك المغلقة، وتصدمك وحشته، ويستفزك ما يبدو عليه من شقاء، فترى كم كان صحيحًا الهاجس الذي اعتراك، وجعلك تظن، وأنت في الطريق إليه، أنك تغادر بلادك، وتوشك أن تتعرف إلى أناس لا يشبهونك، وليسوا من قومك. كم بدا التناقض لعيني وشيجًا بين «دير الجسور» والعمران، وعربي والإنسان، بينما كنت أتفقد المكان بعينين متفحصتين منقبتين، وأفهم التماهي بين عربي والدير، وأقول في نفسي: ليس ظهوره هنا بالأمر الذي يدعو إلى الاستغراب، بل هو حتمية لا مهرب لنا منها.

أراحني هذا التفسير، إلى حد جعلني أظن بأنني بدأت أضع قدميّ في الاتجاه الصحيح، وفي هذه اللحظة، وقعت عيناي على الجامع، نقطة التميز الوحيدة وسط هذا القفر التوتيائي، ببيوته المتهالكة التي أحالها لونها القريب من الصفرة إلى جزء من السديم الغباري الوهاج، المتأجج من حوله، وجعله يبدو من بعيد، وكأنه يحترق بسراب من نار؛ فأدركت الآن أن البلدة تقع بين الفرع والجامع؛ الفرع الجديد العالي، والجامع، البناء الحجري الوحيد في «الدير» الذي صمد على الرغم من تداعيه، وأيقنت الآن أن «الدير» تقع بين علامتي أمكنتنا الفارقتين: الفرع، والمسجد، وأن موقعها يرجح أن يكون السبب الذي يفسر ظاهرة عرباوي، ورأيت في هذه الثنائية التي تبدو في الظاهر متناقضة تفسير الظاهرة العرباوية التي اخترقت الأمكنة جميعها، وأقنعتني بالتخلي عما اعتقدته قبل دقائق قليلة حول الصلة بين عرباوي وهذا المكان، وبالشروع في تحقيقاتي؛ انطلاقًا من هذه الحقيقة، لولا أن قفزت إلى ذهني أسماء أماكن أخرى، أنجبت عرباويين، راسمة أمامي صور وأسماء أحياء في العاصمة البعيدة، وغيرها من مدن وحواضر بلادنا العامرة؛ فلعنت في سري التفسيرات المتسرعة والمريحة، وانحدرت -شيئًا فشيئًا- إلى كآبة ذلك الإرباك الذي استولى عليّ في الآونة الأخيرة، وحين قفز إلى ذهني سؤال اتسم بإلحاح مقيت، عما يجمع عرباوي الجسراوي بعرباويي المدن الأخرى، وكيف أنتجت منابت مجتمعنا البشرية المتباينة «العرباوية»، تجمعت حبيبات عرق بارد فوق جبيني، وانسابت فوق عنقي، فصدري، حيث نزت نزيزًا متدفقًا، زادته حرارة الجو الصحراوي لزوجة، بينما كانت قبضته الغبارية تمسك بأنفاسي، وتوشك أن تخنقني.

كنت قد أنعمت النظر -بعض الوقت- في «الدير»، من دون أن أرى -في واقع الحال- شيئًا منها، كان الفرع يبدو خارجها، أو أُلصق إلصاقًا بها، من دون أن يكون جزءًا تكوينيًا منها، أو ينتمي إليها، وكان يثير الانطباع بأنه قطعة من العاصمة، نُقلت بكاملها إلى غير مكانها، وكان موقعه على التلة يجعله أشبه بنسر يحوم في أجوائها، يوشك أن ينقض في أي لحظة عليها، كما ينقض نسر حقيقي على فريسة تحاول الهرب من مخالبه في الفراغ الرملي المنبسط؛ وجعلني هذا المشهد أغير رأيي مرة ثانية، وأتخلى عن تحفظي، فأقرر زيارة المكان الغريب من كثب؛ كي لا تستنزفني الحيرة، ويضنيني التردد من جديد، وأقيد بحيرتي وترددي المهمة التي جئت لتحقيقها؛ فبادرت إلى تنفيذ ما عزمت عليه، كعادتي حين أتخذ قرارًا، وشرعت أنحدر من التلة المرتفعة إلى المنازل الجاثمة تحت أقدامه. كنت أنحدر بسرعة، بل أتدفق -بالأحرى- تدفقًا نحو كثبان الرمل التي تغطي قسمًا كبيرًا من الأرض المسطحة، وعندما أحسست بأنني قد أفقد السيطرة على توازني، تباطأت إلى أن توقفت. كان حدس ما يدعوني إلى التوقف، والنظر إلى الفرع من موقعي المنخفض في «الدير»، فإذا بعناصره يقفون وراء نوافذه، ويحدجونني بأعين مدققة، فوق أفواه تعلوها ابتسامات تشي بالدهشة؛ استغربت المشهد الذي جعلني أشعر أن كل من في الدير يتحداني، ويهزأ بي، وأوحى إليّ أن قبول التحدي -وحده- لن يضمن لي النجاح المطلوب. لم أفهم سبب سلوكهم الذي أقنعت نفسي بأنْ لا بد من أنه يرجع إلى أمر أصدره إليهم رئيسهم الخبيث؛ فأشحت عنهم، وواصلت طريقي بهدوء إلى البلدة، يشغلني السؤال: أتراهم لم يرتاحوا لقدومي الى «الدير»، أم إن الخبيث يمارس معي لعبة

غامضة المقاصد، لا أعرف -بعدُ- هدفها؟ كبحت التساؤلات التي تطرح نفسها على من يعاني أزمة ثقة في قدراته، أو يواجه ما لا قبل له به من أحداث وظواهر، وكانت توشك أن تجتاحني من جديد، وتجعلني أتعثر باستنتاجات متسرعة، وأسمح لتصرف ما، غير مفهوم، بتشويشي وإرباكي.

لم أعثر على شيء في الدير، ولم أجد فيها مقهى، أو مطعمًا، أو دارًا للسينما، أو مستوصفًا، أو مدرسة، أو حديقة، أو ساحة عامة، ولا حتى طريقًا معبدة؛ فكرت -وهلة- أن أرجع إلى الفرع المحلي؛ لأبلغ العاصمة عن مكان من وطني، اسمه «دير الجسور»، نسيه الزمن عند تخومه البرانية، وقد خرج من عالم الأمكنة وأشيائها. لكن النسر الرابض فوق التلة، وقد غرس أنظاره في ما تحته، أخبرني أن العاصمة تعرف بوجوده، وأنها نفسها حاضرة فيه بطريقتها التي تغطي كل شبر من البلاد.

لم أصادف أحدًا في البلدة، ولم أرَ ما يدل على حياة؛ فعدت إلى الفرع، منقبض النفس، حزين القلب، وأنا أقول في سري: بماذا سأحقق هنا، وأي تحقيق يمكنني الشروع به، إن كان عرباوي الجسراوي كائنًا غير منظور، متآمرًا خفيًا، أو كان المكان هنا بلا ملامح، ويستحق أن يطاله العقاب، ولكن أي عقاب يمكنك إنزاله ببشر لا مكان لهم، ومكان ليس فيه بشر؟ دخلت الى الفرع، فإذا بأبواب غرفه جميعها مفتوحة على مصاريعها، وقد وقف في بعضها رجال يراقبون أوبتي.

قصدت مكتب الخبيث، طالبًا منه تقريرًا عن هذا القفر الرملي الميت والمخيف، تنحى الرجل عن مكتبه الرسمي، يرجوني أن أجلس مكانه، قبل أن يجلس هو في مكان آخر، مستأذنًا في إنهاء حديث، كان يوجهه إلى عناصر تحلقوا حوله، أو توزعوا في أنحاء الغرفة.

ظننت -أول وهلة- أن الأمر عادي، وقليل الأهمية، فلم أعره انتباهًا خاصًا، وشجعني صوته الرتيب الذي لا تلاوين أو تضاريس فيه، على تجاهل أقواله التي خلتها قصة أجبر على حكايتها للمرة الألف، وأخذني الشرود، فلم أتبين غير نتف من أسماء وألغاز وتواريخ عملية تهريب كبرى، قام بها فرع غير الذي ينتمي إليه ورجاله، أوصل -خلالها- قسمًا كبيرًا من محاصيل البادية ومواشيها إلى البلد المعادي، على الرغم مما يقال عن إغلاق الحدود وحراستها المشددة، تعالت همهمات الحاضرين، حين نطق الخبيث كلمة الحدود، وتصاعد لغطهم إلى أن غدا قهقهة ساخرة، لا لبس فيها، كأن الرجل قص على مسامعهم نكتة محبوكة الديباجة، أو أنه دغدغهم، لم أفهم سبب ضحكهم الذي أيقظني من شرودي، وكاد يدفعني إلى توبيخهم؛ ليقيني من أن السخرية من الحدود هي هزء بالدولة، وبالنظام، وبي. لاحظ الخبيث استيائي المكتوم، فلم يأبه للأمر، بل واصل حديثه بصوته الممل، منهيًا كلامه بتعليمات، بدت لي غير مفهومة وغامضة، حفلت بكلمات وإشارات، عجبت كيف فهموها.

أثارت أجواء الفرع ريبتي، أشعرتني بأنني لم أدخل إلى دائرة تبعث الألفة في نفسي، وإنما دخلت -خطأ- إلى وكر يستخدم سكانه لغة وإشارات وحركات خاصة بهم، تَحول -عن قصد- دون تسلل الغرباء إلى أسرارهم، ودون دخولي -شخصيًا- إلى عالمهم، ولولا معرفتي بمقتضيات العمل الأمني السرية، لقلت إنني لا أنتمي إلى ما ينتمون إليه، ولا أفهم، أو أقر، ما يفعلونه، وربما كانوا -هم أيضًا- لا يقرون، أو يفهمون، ما أنا مقدم عليه، وقادم لأجله؛ فحمدت -عندئذ- الله في سري؛ لأنني لم أتصرف بوحي اللحظة الذي أثاره لدي حديث الخبيث، ولم أرضخ لما كان، وعناصره، يمارسونه من استفزاز بسخريتهم من الحدود، ولم أتخل اليوم -أيضًا- عن التحفظ والتروي، ولو تخليت، لكنت وبخت رئيس الفرع ورجاله، وسجنت بعض عناصره، أو أرسلتهم إلى سجن الفرع الكبير في العاصمة، وحققت معهم، وكشفت ما يكمن وراء موقفهم من سياج الوطن. لقد تصورت ماذا كان سيحدث، لو أنني نفذت فكرتي، ورفض الخبيث تنفيذ أوامري، أنا الضابط الذي لا سلطة له عليهم؛ فحمدت ربي مرة ثانية؛ لأنه منحني ما يكفي من الصبر والتردد في مواجهة مواقف صعبة، كالموقف الذي مررت به قبل قليل.

ما إن غادرني الخبيث؛ حتى قررت إرجاء ما أقوم به عادة، من عمل ليلي، إلى اليوم التالي، والذهاب إلى النوم، وقد باغتني خدر لذيذ، يسبق -عادة- الغرق في المملكة التي لا يوفر سلطانها القاهر أحدًا، نهضت من الكرسي، وألقيت بنفسي على سرير يحتل ركن مكتبي القريب من النافذة المطلة على الدير، وقد عزمت على أن أفيد

من الاسترخاء وصفاء الذهن؛ لأراجع ما حدث منذ عودتي من «مزار الدب». لكن النعاس ما لبث أن غلبني، من دون أن يتيح لي الوقت لخلع ملابسي.

لماذا هجر النعاس فجأة جفنيّ، وشدتني يقظة لجوجة إلى ما جرى بعد عودتي من «المزار»، وتوجهي إلى «الدير»؟ تقلبت الليل بطوله، وأنا في تنبه شديد، تخالطه بين الفينة والأخرى غفوة، تقع بين السبات واليقظة، تعاودني كلما أحسست باختلال موازين حياتي وفكري، عندئذ تقفز «المزار» إلى ذاكرتي، وتتجسد أمام عيني، كأنها تريدني أن أقصر أفكاري عليها وحدها، قبل أن تشرع في الانفراد أمامي وورائي، وحولي وفوقي، عن يميني وشمالي، وفي احتلال جميع المساحات المرئية والمخفية التي يتحرك فكري وشعوري داخل إطارها، فلا يبقى لدي ما أتحسسه، أو أفكر، أو أشعر به سواها، بينما ينتشر خيط حياتي في مخيلتي، ثم أمام ناظري، بادئًا بها قبل عشرين عامًا، وإلى اليوم الذي أنا فيه، وما أن تشرع أحداثه ومحطاته تتكرر بوقعها الرتيب؛ حتى تمسك بي شباك سيدنا ومولانا «حمدان»، أتخبط فيها، وأقف مكرهًا عند بعض عقد وتطورات منها، من المحال أن أنجح في الانفكاك منها، وأنا أجمح فوق محطات، كنت أظنها اختفت من ذاكرتي، فإذا بالإعادة التالية ترجعها حية أمام بصيرتي، وتمحو ما كنت أظنه راسخًا في قلبي، بصفتي رجل أمن، وفي نهاية عذاب الليل، أجدني في «المزار»، قريتي المختبئة في بطن واد سحيق، حجبها عمن هم خارجه، تمسك بتلابيبي، وترفض مغادرتي، ولا أقوى على الخروج من شرنقتها، على الرغم من ابتعادي المكاني منها.

ليست « المزار» القرية الأصلية لآبائي وأجدادي، وإن كنت أعدّها قريتهم؛ كي لا أروي كل مرة قصتهم معها؛ «المزار» هي القرية البديلة لضيعة «مزار الوحش»، التي هجرها أهلها، وانزلقوا إلى بطن الوادي السحيق؛ هربًا من رجال الدرك، وجباة الضرائب الأتراك، وبمضي الأيام، والأمان الذي أحسوا به في موقعهم الجديد، ألف القوم المكان، واكتشفوا مزاياه الفريدة، ومنها أنه وضعهم خارج قبضة الدولة التي ظلوا من رعاياها، ووقاهم شرها، وأبقى لهم قدرًا من محاصيلهم، كان الجباة والدرك ينتزعونه منهم، بذريعة أن لله والسلطان في رزق عبيدهما نصيبًا. حار ممثلو الدولة في اختفاء أهالي «مزار الوحش»، وكانت حيرتهم -حين لا يظهر لهم أثر- تقنعهم بما راج من قصص حول تحولهم من أنس إلى جان، أيدها شيخ أوفدته الدولة العلية لاستجلاء سرهم، فتلقى رشوة منهم، مقابل فتوى تشرح كيف تحولوا الى عصاة من الجان الأحمر، يسكن بطن جبل خفي، يحرم على المؤمن البحث عنهم، أو مشاركتهم الطعام والشراب والفراش، وما شابهها من معاص، لا يغسل ذنوبها أي عمل من أعمال البر.

ماذا أتذكر «المزار» حين أشعر بالخطر، وتحيق بي المصاعب والمتاعب؟! ولماذا تمسك قريتي اللعينة بتلابيبي، على الرغم من أنني غادرتها منذ وقت، ما عدت أريد أن أتذكره، وامتنعت عن زيارتها في السنوات الأخيرات التاليات لارتقاء « حمدان الأبرص»، هادينا الذي أخرجنا منها، ونشرنا في البلاد ضباطَ جيش وأمن، عافت نفسي بعده الذهاب إليها، ما عدا مرات قليلة، لم أبق فيها كل مرة غير ساعات، تُعد على أصابع يد واحدة، ولأغراض تتعلق غالبًا بالعمل؟

ما الذي أستطيع فعله؛ للإفلات من قهر ماض، لا يريد مبارحة عقلي، يسمم حضوره حياتي ووجودي، على الرغم مما يقال دومًا عن أنه وجود غير موجود، مضى وانقضى؟! ماذا يمكنني فعله؛ لتتحول بلادنا إلى «مزار كبير»، أو ليقبل أناسها «حمدان» ميتًا، كما قبلوه وانصاعوا إليه حيًا؟! لماذا تنتابني الحيرة، وأشعر بالاختناق، وفقدان الرشد، كلما تمترست «المزار» في عقلي، فأفكر وأتصرف كما كنت أفكر وأتصرف بوحي من سطوته في كياني؟! ولماذا أتلفت حولي، خائفًا كطفل وحيد، يجتاز غابة مظلمة، تدنو منه وحوش، تفتح أشداقها لالتهامه؟!

حضرت المزار، فطار النوم من عيني الناعستين، أشعلت لفافة من علبة ملقية على الطاولة الصغيرة، القريبة من رأس سريري، وما إن عببت نفسًا عميقًا، حتى انتابتني موجة سعال، وسكنني إحساس بالاختناق، فألقيت اللفافة إلى سلة المهملات، وأنا أرن الجرس بعصبية وتوتر، جاء الحارس مسرعًا، وهو يفرك عينيه شبه المغمضتين، سألته عن الحمام، وقبل أن يرد، أمرته بإعداد فنجان قهوة، فأخبرني بأن الماء قد نفد، والقهوة لم تصل إلى الفرع منذ شهرين. كان القلق والتوتر باديين على وجهي، فسألني إن كنت أرغب في قدح من الويسكي، ومن دون أن ينتظر ردي، مد يده إلى الخزانة المنخفضة القريبة من رأس سريري، وأخرج منها زجاجة ويسكي، صب قليلًا منها في قدح كان قد جلبه معه، ثم حياني، وانصرف من دون كلام.

لم يأت الشراب بالنوم إلى عيني، ولم يمحُ صورة «المزار» من أمامها؛ حتى بعد أن أفرغت الزجاجة كاملها في جوفي، كانت أفكاري تلاعبني كعادتها، وتنتقل من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى مستقبل لم أتمكن التفكيرَ فيه، ولو مرة واحدة، من دون أن أشعر بالرعب من مخاطره، مثلما كانت تطير بي من وقائع «المزار»، المعقدة والبغيضة، إلى غوامض «الدير» المخيفة والمتحدية، عندئذ كان يقلقني الإحساس الذي لا يبرحني بأنني عشت سنوات عمري الأولى في «المزار»، من دون أن أتعرف إليها، وكذلك يقيني بأنني لا أعرفها الآن أيضًا، على الرغم من عجزي عن الإفلات من شباكها، وتمثّلها في كل زاوية من زوايا عيشي وتفكيري، وكل علاقة من علاقاتي، ولا سيما الأمنية منها، على الرغم من أن حياتي كانت تتصل بمفرداتها ونمط عيشها، بدلًا من أن تكون مسيرة ابتعاد منها، وجهدًا دؤوبا للخلاص منها. كم قلت لنفسي: إذا كنت لا تعرف القرية الصغيرة التي ولدت ونشأت وصرت رجلًا فيها، فماذا تعرف عن بلادك؟ ماذا تعرف -على سبيل المثال- عن «دير الجسور» التي جئت لسبر غورها، وكشف خباياها خلال أيام معدودات، وأنت لم تكن تدري قبل ساعات قليلة بوجودها؟ وبوصولي إلى هذا الخاطر المباغت، وجدتني أتساءل عن الزمن الضروري للتعرف إلى كومة الصفيح التي يسمونها «دير الجسور»، ولم يكن لديها ما تقوله لي، إلى الآن، غير إيقاظ ذكريات «المزار» المحبطة في نفسي المعذبة. نهضت من السرير، واتجهت إلى النافذة، كانت كتلة من ظلام دامس تلف «الدير»، لكنني توهمت أنني لمحت أشباحًا داكنة اللون تتحرك فيها؛ فأسعدني الاكتشاف، وذكرني بقصة جان «المزار»، فتساءلت بشيء من

المرح: هل كان الناس يفرون في الماضي من وجه الدولة، بالانحدار إلى الوديان السحيقة والمجاهل النائية، وصاروا يتفادونها اليوم بالغوص في ذواتهم، وإغلاق أبوابها بأقفال يرمونها بعيدًا؛ لتكون عصية على الفتح؟! ما إن مرت هذه المقارنة في ذهني؛ حتى انتشيت بيقظة بعثتها في داخلي المقارنة التشبيهية بين «المزار» و«الدير»، وما قد يترتب عليها من قربى محتملة بينهما، ترجع فروقها إلى تباين الأزمنة، واختلاف الدول. عدت الآن إلى الوعي، كما لو كان برقًا سطع فجأة، وأضاء عتمة فكري، فباركت في سري المقارنات، بعد أن لعنتها مرارًا وتكرارًا، وذكّرت نفسي بعهد قطعتْه لي بالكف عن اللعب مع الأسئلة التي تهدم اليقين، وتهز القناعات، وتثير الشكوك؛ وعدت في صحوتي إلى تلك الحال التي لا أخاف فيها على نفسي من أفكاري، أو أستغرب ما يدفعني إلى إقامة صلات بين «المزار» و«الدير»، وعرباوي والهاربين من وجه درك وجباة الترك، ودولة «المزار» ذات القبضة الساحقة التي تمسك بتلابيب رعاياها جميعهم، والدولة العثمانية التي لم يكن لدى دركها وجباتها ما يكفي من الجرأة؛ لمواجهة الذين يعيشون في بطون ودياناها؟ وما الذي كان يجعلني أكرر في سري كلمات اعتذار، تطهرني مما انزلقت إليه من تساؤلات مقلقة، وشكوك تقض مضجعي، وتطير -مرة تلو أخرى- النوم من عينيّ.

انتهى الليل الطويل، ليل الشكوك والوساوس والذكريات المعذبة، وزالت معه الهواجس المقلقة التي أنهكت روحي، ولازمتني في عقب زيارتي الأخيرة «للمزار»؛ فعدت من النافذة إلى الطاولة منشرح النفس، كأنني ربحت معركة ضروسًا ضد أشباح طردتها

من رأسي، وأفشلت سعيها لتحطيمه، وبعثرة محتوياته، واتجهت إلى النافذة من جديد، بعد أن مسحت وجهي بماء كان في قدح صغير، وضعه الحاجب البارحة على المغسلة، ألقيت نظرة أخرى على «الدير»، فرأيت أكوامًا هائلة من الغبار والتراب الأحمر، تنطلق في حركة لولبية نحو السماء الصحراوية، المصطبغة بلون أحمر قان كالدم، كانت البلدة تبدو، من خلال الجدار الترابي المتذرر، كتلة باهتة اللون، سقطت جدرانها الصفيحية على من فيها وما تحتها، وجللها غبارها الدامي بالكآبة والموت؛ بعث المنظر الموحش في داخلي إحساسًا بالشقاء، لم يسبق لي أن عرفت مثيلًا له، وما إن طرد شعوري بالغبطة الذي انتابني عند الفجر؛ حتى أيقنت بأنني سأكون قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، إذا لم أسارع إلى إنهاء التحقيقات، والمغادرة في أقرب فرصة.

قصدت مكتب الضابط، وطلبت إليه بلهجة آمرة معلومات تفصيلية عن «دير الجسور»، على أن يوافيني بها في اليوم التالي، على أبعد تقدير، كنت أتلهف الآن لتحديد الخطوة الأولى الضرورية للدخول إلى أغوار البلدة، فقال الضابط -عجبت من أنه كان صاحيًا- كلامًا، فهمت منه أن الدير لم تكن موجودة إلى الأمس القريب، وأنها تعيش في عالم تنفرد به، صنعه من يرسلون محاصيل البلاد ومواشيها إلى الدولة المعادية، ممن جمعوا بدو القفار في هذا المكان، وبنوا لهم بيوتًا طينية، وأكواخًا صفيحية، وحفروا بئرًا، سرعان ما تهدمت، وغاضت مياهها، ثم جعلوهم على الدروب والمسالك غير المطروقة، في هذه الفلاة مترامية الأطراف، ينقلون محاصيل وغلال بلادنا إلى

البلد المعادي، وبالعكس. توقف برهة عن الشرح، قبل أن يضيف بلهجة يائسة: بما أنك أتيت لدراسة ما تسميه البلدة، ولأنك صاحب مقام رفيع، كالذين يأتون في مثل هذا الوقت من العام؛ بحجة جمع معلومات عن «الدير»، توفرت لأفرعهم منذ وقت بعيد، فإنني أرى ألا تكون نافذ الصبر، وتنصرف إلى معرفة ما تريد بأناة وصبر، وأن تنفذ إلى روح العرباويين الذين تبحث عنهم هنا؛ بسبب ما تظن أنه سيكون لهم شأن في مستقبلنا. صمت صوته الرتيب الذي شابته مرارة ظاهرة، ثم نظر إلى النافذة، وتساءل صارفًا عينيه عني، كأنني طرت إلى الفراغ الذي كان ينظر إليه: ألا ترى ذلك أيضًا، سيدي؟ يبدو أن نظرة استفهامية كانت تنطلق من عيني، وأنني كنت ذاهلًا لا أصدق ما تسمعه أذناي من تلميحات واتهامات. لاحظ ما اعتراني، لكنه لم يأبه لذلك، بل واصل كلامه، شارحًا ما أسماه الأوضاع العامة: لا يعرف سكان هذه البلدة العمل؛ لأنهم يعيشون من التهريب الذي يرجع إلى التباسات فرضت عليهم العيش من بلاد لا يسكنون فيها، والسكن في أخرى لا يعيشون منها، يملأ قلوبهم ولاء للبلاد التي يريدون لها أن تنتج من دون أن تستهلك، وللأخرى التي يحبون أن تستهلك من دون أن تنتج، وتطفح نفوسهم بكره الحدود، وبحبها في آن معًا، يمقتون رجال الجمارك؛ لأسباب غير مفهومة، ويحبون رجال الأمن؛ لأنهم يحرسونهم، ويسهلون انتقالهم عبر الحدود، جيئة وذهابًا، على الرغم من أن عوائد «حكهم» لا تذهب إلى جيوبهم، وإنما تصب في جيوب سادة العاصمة.

صمت، وهو يتفحص وقع أقواله علي، بعد لحظات من التلذذ بحالي، نظر إلي كأنه يراني أول مرة، وأردف بصوت كالصراخ: من واجبي إخبارك بتفاصيل وافية عن التحقيقات التي نجريها منذ شهرين حول عمليات التهريب الأخيرة، فأنت -كما أظن- مكلف بالاطلاع عليها، وكتابة تقرير عنها؛ بحكم منصبك الرفيع في الأمن العسكري، والفرع الذي تنتمي إليه، والمدة التي جئت فيها، وعلاقاتك بكبار رجالات الدولة، وأرباب المناشط والفاعليات. قلت: إن مهمات ضابط الأمن تشمل كل شيء، وأي شيء، وإن الذي يحصر عمله في مهمة لا يحيد عنها يفشل أمنيًا. لكنه لم يدعني أكمل، بل استعاد خيط الكلام، وسألني مركزًا نظره -بحدة ووقاحة- على وجهي، إن كنت قد جئت لمواصلة التحقيق في العمليات الأخيرة، مثلما جاء قبل أسبوع ضابط من فرع آخر؟ لم أجب عن سؤاله؛ لسبب لا أعرفه، فألقى علي سؤالًا جديدًا، تطفح منه الوقاحة: ما السر في أنكم تأتون من العاصمة منفردين، وتهتمون بجوانب من العمليات دون أخرى، وترفعون تقاريركم عنها إلى جهات دون أخرى؟ لم لا تأتون معًا، وتعملون معًا، كما يليق برجال أمن يخدمون دولة؟ كان صوته قد بدأ يشي بشيء من خوف، أخذ يعتمل في صدره، فاندفع بحركة مباغتة، وأمسك بيدي، وخاطبني ضارعًا: قل لي الحقيقة، سيدي العقيد، فنحن ضعنا بين القادمين والذاهبين، ونخاف من أن نسقط ضحايا لعملياتكم، على الرغم من أننا لسنا سوى منفذين لأوامركم. لم أجب عن سؤاله، هذه المرة أيضًا، بل طرحت عليه سؤالًا حول الدور الذي يقومون به هنا، لم يفهم القصد من سؤالي؛ لذلك، انطلق في حديث طويل، شرح خلاله لماذا ينام رجاله في النهار،

ويستيقظون في الليل، وقال إن عملهم ليلي، وعمل فرعه الأساسي السهر على تنفيذ المهمة التي أخبرني بها؛ فقلت منددًا: إن وضعًا كهذا يتعارض مع مستلزمات الأمن، ويعوق مهمتي الأصلية، فأجاب بالخبث الذي كان يكتمه قبل دقائق قليلة، وكأنما عاد إلى طبيعته الأصلية، ستعتاد بعد حين على السهر في الليل، والنوم في النهار، وإلا كنت اليقظ الوحيد في عالم ينام كل من فيه، وعجزت عن الوصول إلى أي نتيجة مما تبتغيه لتحقيقك.

استأت من لهجته، لكنني تظاهرت بعدم الاكتراث، وسألته: لم لا يعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي، وهو الضابط المسؤول عن أمن البلدة، فأجاب ببرود: لأن إعادة الأمور إلى نصابها ليست بالأمر السهل، وتخالف واقع الحال في «الدير»، بل إنها قد تهدم ما صار سيرًا طبيعيًا للحياة، وتلقي بنا إلى هاوية بؤس أشد هولًا من الذي نحن، وهي، فيه، وتصل بمن يحاول إلى حيث لا أريد له أن يكون. توقف يزن وقع كلامه الصريح والقاسي علي، قبل أن يضيف ببطء: إن من حاولوا في السابق فشلوا، أيما فشل، وندموا أعظم ندم، عندما وجدوا أنفسهم خارج وظائفهم، يلاحقهم رؤساؤهم بالغل والضغينة، ويلفقون لهم التهم، ويعاقبونهم على ذنوب لم يقترفوها، فاحذر، سيدي العقيد، هذا السقوط، واهجر ما قد يراود ذهنك من أفكار حول ضرورة تغيير النظام السائد. سألته، مستغلًا وقاحته، وميله إلى الثرثرة، عن أسماء المتورطين في حال «الدير»، فأجاب متهربًا: إنني أثق -سيدي- بمعرفتك لهم، واستغرب سؤالك عنهم، ولا أجرؤ على ذكر أسمائهم المعروفة -على كل حال- للقاصي والداني. ثم

توقف يتلفت حوله، نهض إلى الباب، فتحه ومد رأسه إلى خارجه؛ ليتفقد الممر الطويل، ثم عاد إلى حيث أجلس، جلس قربي تمامًا، وسألني بصوت مهموس: من تراهم يكونون، إذا كانوا لا يأبهون لأحد، لا يخشون من أن يقتلعهم من كراسيهم أحد، ولا يستطيع أحد مد يده إليهم بسوء؟ تظاهرت بأنني لم أفهم سؤاله، وذكرته أنه لا يجوز استباق التحقيقات، وأن حديث عناصر الأمن بمثل هذه اللهجة عن رجالات البلاد، هو من الأمور المحظورة والشائنة، فإذا بالمأفون يفهم الأمر على طريقته، ويعقب بصوت مرح ومسموع: ها أنت ذا تعرفهم، سيدي العقيد.

نهضت من مكاني مغادرًا الغرفة، وأنا لا أدري لمَ ترك الكلام وقعًا حسنًا لدي، على الرغم من أنني لست ممن يسمحون لرؤوسهم بحمل أفكار متشككة، كالتي في رأسه. خطر لي أنه ربما كان رجلًا يعبر عن راهن الحال، مثلما عبرت أنا نفسي عن الحال السائدة في أيامي؛ فقلت: إنه رجل نقدي؛ لأن الأوضاع ذاتها لم تعد ما كانته من قبل، وإذا كنت قد امتلكت روحه الناقدة، عندما كنت في مثل سنه ورتبته، فلأن الأمور كانت تختلف كثيرًا عنها الآن؛ ولأن المشروع الذي حملته كان في بدايته نقيًا وطاهرًا، وواعدًا وملموسًا. أما الآن...؟ على الرغم من إعجاب خفي بالخبيث، كتمت سؤالًا راودني عن الآن؛ كي لا يعيدني إلى متاهة أفكاري، وعلى الرغم من ذلك، وجدتني أهمس ساهمًا: تسأل عن الآن، الآن زمن الصمت، ومكابدة الخوف والقهر.

كنت قد بلغت الممر الفاصل بين الغرف، نظرت عبر أحد نوافذه إلى الخارج، كان وهج الحر اللاهب يحرق الأرض والسماء بشواظ من نار، تطلقه في الاتجاهات جميعها شمس حانقة متأججة، دمدمت لاعنًا النهار الصحراوي، نهار القيظ واللزوجة والكسل والانتظار والغربة، وبعد هنيهة، تناهت إلى مسمعي أصوات نباح هائج، ينبعث من أزقة الدير الضيقة، قبل أن تتدفق إلى المنبسط، القريب من تلة الفرع، كلاب جائعة، تلاحق حمارًا هزيلًا، يكاد لا يقوى على السير، ويقف على الخط الفاصل بين الموت الوشيك، والحياة المتباعدة، كان الحمار يركض بآخر ما في جسده من يأس، والكلاب تنطلق في أثره، يسبقها إليه نباح مسعور، تختلط فيه رغبة القتل الوحشية بالجوع المزمن، أدركت الحيوانات المفترسة الحمار، وشرعت تنهش القسم الخلفي من جسده، ثم بدأت أنيابها تقضم الحيوان الذي كان ما يزال يحاول النجاة، بما تبقى منه، بينما كانت أنياب الكلاب تتقدم نحو رأسه، ممزقة ما فيه من جلد ولحم، تنازعته أشداقها، كان عدد الكلاب يتزايد، وحجم الحمار يتناقص، فأخذت الكلاب الوافدة تحاول انتزاع ما في أفواه الكلاب التي سبقتها، بينما طفق حشد منها يتشمم الأرض، أو يلعقها، وحشد آخر ينخرط بضراوة في معارك تزوبع غبارًا، يصل إلى الفرع.

تلاشت النشوة التي أعقبت حديثي مع الخبيث، وحل محلها قرف ملأ حنجرتي بطعم كريه، وكياني بإحباط أحسست أنه سيحبط، لا محالة، محاولاتي الإمساك بطرف خيط الحياة اليومية لضابط أمن كبير؛ وبدأت -الآن- حبيبات حمراء تخرج من حلقي، فأخرجت منديلًا

أمسحها به، بيد أنها سرعان ما تحولت الى نبع تدفق من فمي، فأخذت أمسحه بالمنديل، محاولًا التخلص من الطعم اللزج والحار الممزوج بملوحة مرة، التصقت بسقف حلقي، كانت رائحة الدم قد أخذت تشعرني بالاختناق، وهي تسد أنفي، وكان طعمه يتزايد على لساني، وفي جوفي، فأخذت أبصقه على أرض الغرفة، كتلًا صغيرة، لكنها ما إن لامستها؛ حتى كبرت وانتفخت، بينما شرعت الكتل التالية تخرج من أعماقي بقعًا مدورة، تناثرت ما إن ارتطمت بالأرض، وبعد قليل أحسست أن نهرًا من الدم يتدفق من أعضائي جميعها، ورأيت الغرفة تغرق -رويدًا رويدًا- في السائل الأحمر القاني، عدوت -عندئذ- نحو الشرفة المطلة على البلدة، وقبل أن أبلغها انفجر تيار أحمر، انسكب كشلال هادر، انحدر من تلة الفرع نحو «الدير» الغافلة عن مصيرها، على الرغم من أن الدماء أخذت تتسلق جدران بيوتها الصفيحية، وتغرقها -بيتًا بعد آخر- في السيل المتلاطم المنقض عليها، وقد غيبها بعد لحظات عن ناظري، عندئذ، برز الفرع وسط بحر من الدم، يشبه جزيرة وسط طوفان من دماء حارقة الرائحة، يحيط به من الجهات جميعها، ويصعد اليه.

عدت إلى غرفتي، يراودني إحساس بأنني غارق لا محالة في الدماء، كنت أشعر بأنني عاجز، لا أعرف ما عليّ فعله لصد بحر الدماء النازل من جوفي إلى البلدة، والصاعد -في الوقت نفسه- إلى الفرع؛ لا أدري لماذا خطر لي في هذه اللحظة أن أفتح ملف عرباوي الجسري، أقرؤه، وأضع خطة لتنفيذ العمل الذي جئت إلى «الدير» من أجله، تمكنني إنهاءَه اليوم، أو غدًا، على أبعد تقدير، على أن اغادرها في اليوم التالي،

كانت الإضبارة مرمية أمامي على الطاولة طوال اليوم، لكنني لم أجد رغبة في نفسي لإلقاء نظرة عليها؛ لنفور أيقظه منظر البلدة في نفسي، جعلني أظن بأن عرباويًا ليس فردًا بعينه، بل هو حالة عامة تتطلب دراستها مثابرة ورؤية شاملة، لا أملكها، تعينني على هتك ما يحيط بالعرباوية من أسرار عرباوي، وما يغلف «الدير» من غموض، جعله عصيًا على الفهم والكشف، وجعلني أتخبط كالتائه منذ أن وطأت قدماي أرضها، لا معين لي غير بلهاء ألفوا النوم في النهار، والاستيقاظ في الليل، ووطنوا أمورهم على دوام انقلاب الأمور، يتصرفون وكأن الطبيعة ذاتها انقلبت إلى نقيضها، ثم يجدون في أنفسهم الجرأة على مطالبتي بأن أحذو حذوهم؛ ليمعنوا في زيادة حيرتي، فلا أعرف من أين أبدأ، وكيف، وبم؛ كانت رائحة النعاس قد بدأت تنتشر في الغرفة، وكان رأسي قد أخذ يتمايل فوق عنقي، فاتجهت الى السرير، وأنا أبعد «الدير» من ذهني، خشية إفلات خيوط النوم الواهية من عيني، وتكرار قلق الليلة السابقة، وما إن ألقيت بنفسي على السرير؛ حتى غططت في غيبوبة عميقة، غير أنها لم تدم طويلًا، استيقظت بعدها، وكأنني نمت منذ ولدت، وما هي غير لحظات قليلة؛ حتى نمت من جديد؛ لأستيقظ، وأعود الى النوم، مرارًا وتكرارًا.

رأيت -في ما يرى النائم- ضابطًا يدخل إلى « المزار» بسيارته الرسمية الجديدة، وقد شرع الناس يتحلقون حوله، ويرحبون به، وقال الضابط، بعد جلوسه على كرسي في أحد البيوت، مخاطبًا من جلسوا قبالته على الأرض: أريد -أيها الإخوة الأحبة- أن تبيعوني أرضكم؛ لأقيم عليها مزرعة كبيرة، يكون لنا ولكم فيها خير عميم،

تعلمون أنني سأعود ذات يوم الى القرية، بعد عمر طويل. فقال أحد الأصوات: وأن جبهة الزراعة تحتاج -أيضًا- إلى من يكسب معاركها؛ من أجل الوطن. سأل -عندئذ- أحد الفتية، بصوت ينم على الدهشة: هل نفهم أنكم قررتم التفرغ لجبهة الزراعة، من دون أن تكسبوا، ولو معركة واحدة، على جبهة الحرب؟ انتفض ضيف الأسرة، كما كان يسمي نفسه كلما وطأت قدماه أرض «المزار»، ورد بلهجة غاضبة: هل تظن أننا هُزمنا في معاركنا المقدسة، والمستمرة على جبهة الحرب؟ ومن أين لك كل هذا الحقد على إخوتنا وأبنائنا المرابطين أمام العدو، ولا يعرف النوم سبيلًا الى جفونهم؛ كي تنام وأمثالك في الليل والنهار، وتتلذذ بحقدك الغبي على حُماتك وحُماة وطنك؟ أليس عارًا -ما بعده عار- أن تطرح سؤالًا كهذا على ضابط في الجيش، أمضى عمره بين الخنادق والحفر؟ كان غضب الضابط يتصاعد، وصوته يميل إلى الصراخ، وهو يقسم على أنه لن يعود الى أسرته، أو يكلم أحدًا منها، قبل أن تعوضه ماديًا عن الإيذاء المعنوي الذي ألحقه فتى منها به، وبالجيش الذي شرف قريته وعائلته بانتمائه إليه.

حار الحاضرون -أول الأمر- في الطريقة التي وقع بها ما حدث، ثم تساءلوا في دهشة: لمَ تعتذر الأسرة، إن كان قد اختلف مع فتى منها؟ كان القوم قد أخذوا ينصرفون، واحدًا بعد آخر، ينتابهم إحساس يقيني بأن العاصفة الحقيقية لم تهب بكامل زخمها بعد، وأن الفصل المقبل، من علاقة المزار والأسرة بابنها الضابط، سيكون أشد عصفًا، وإثارة للدهشة، من فصلها الذي عاشوه [illegible]

تطايرت أخبار الخلافات بين أبناء زاهد الخالد في القرية، وقالت الألسن إن الضابط شهر مسدسه على أخيه؛ لأنه رفض بيعه أرضه، وذكره بساطع المصطفى، ضابط القرية الآخر، الذي أرغم إخوته على التنازل عن أرضهم بقوة السلاح، واستقدم جرافات عسكرية قلبت الجبال، وردمت الوديان، وحولتها إلى سهل منبسط كالكف، أحاطه الجنود بأسلاك شائكة، وعلقوا عليها لوحات صفراء، تبرز منها جماجم وعظام، تحذر الغرباء من الأرض الملغومة.

كان الأخوة يستمعون غير مصدقين، بل إن أكبرهم، واصل الخالد، قال بصوت منفعل: يبدو أننا عدنا إلى أيام قابيل وهابيل، وتساءل إن كان قابيل سيفرض قانونه عليهم، ضاربًا عرض الحائط بالدين ونواميسه، وبأحكام وأعراف الطبيعة التي فطر الله -سبحانه- البشر عليها؟ قال الأخوة متوسلين: أنت أنعم الله عليك بوظيفة كبيرة، وراتب وفير، وقد سبق لك أن أخذت حصتك من الميراث، فسيجتها وقلبتها ورويتها من ماء النهر، بينما نكافح -نحن- في هذه القرية الفقيرة الجوع والحاجة، ونخاف المستقبل الغامض، فهل يجيز شرع الله أن تنتزع أرضنا، مورد الرزق الوحيد الذي نحيا منه؟! أجاب الضابط: لن أنتزع أرضكم، بل سأشتريها منكم، وسأتيح لكم فرصة العمل لدي، إذا كان العمل الزراعي عزيزًا على قلوبكم إلى هذا الحد، وسأحميكم من الطامعين في أرض، هي لآبائكم وأجدادكم، فلماذا تعاندون؟ ألم تسمعوا -بعد- من القصص ما يكفي لجعلكم راغبين في حماية أنفسكم؟ أليس من الأفضل أن يحميكم أخوكم، وينقذ أرضكم، ويحفظ لأسرتكم هويتها وأرضها؟ كان الأخوة قد سمعوا

-بالفعل- قصصًا كثيرة عن أراض انتزعها ضباط «مزار الدب» من أصحابها، على الرغم من أنهم لم يوافقوا على بيعها.

غادر الضابط القرية؛ معلنًا أنه سينقذ إخوته المجانين من أنفسهم، وسيضع يده على الأرض باسم القانون الوحيد السائد، قانون الضرورة، وإن تعارض مع قوانين الطبيعة والدين والناموس، وأفهمهم أنه لن يأبه لأي رابطة أخوية، ولن ينساق وراء عواطف فارغة؛ كي لا يعذبه ضميره في المستقبل، ويلومه أبناؤه على التفريط بالأرض، ثروة أسرتهم التي ما بعدها ثروة.

أفاقت القرية بعد أيام على هدير الجرافات، وزعيق العساكر، فقد جاءت قوات الضابط لتقيم جبهة الزراعة بأدوات الحرب، توجهت القوة الوافدة إلى مجرى النهر الذي يخترق أرض الأخوة، وشرعت في تحويله إلى أرض الأخ الأكبر، هابيل الأول، كما أسماه القرويون، وأقام الجند سدًا وسط المجرى، دفع ماء النهر إلى الأرض التي عن شماله؛ عندئذ وصلت شاحنات كبيرة، تحمل كميات كبيرة من التراب الأحمر، ألقت بها وراء السد، صنعت الجرافات منها سهلًا صغيرًا امتلأ بعد أيام بالغراس، تلك كانت الخطوة الأولى على طريق كسب المعركة ضد «واصل الخالد»، أخو الضابط «عاصي» الذي رأى أرضه تغيب، رويدًا رويدًا، تحت مياه النهر، فذهب إلى المدينة القريبة، شاكيًا أمره إلى السلطات، وعندما أخبره الموظف الذي تلقى شكواه بأن ما حصل لأرضه من الضرورات الأمنية، أدرك أن قانون الضرورة لا يهزل، وأنه ليس كلامًا يقال، فحسب، فعاد إلى القرية،

وباع أرضه لأخيه الضابط بالثمن الذي حدده المشرف على حملة حماية أرض الأسرة، وصون كرامتها وشرفها.

امتد السد إلى أرض الأخ التالي، فغمرتها المياه، فعرف -هذا أيضًا- أن قانون الضرورة أدركه، وأنه زاحف إلى حياة الأخوة جميعًا؛ من يدري أين هذا الأخ الآن، لقد غادر القرية إلى مكان لا يعرفه مخلوق، وبعد أيام كان سيادة الضابط، كما أخذ أخوته يسمونه، قد أنقذ أرض الآباء والأجداد، فضمها إلى أرضه، وسيجها، وجعل لها أبراجًا محروسة بالبنادق، ولوحات صفراء، تحذر الغرباء من الأرض الملغومة.

رأيت -في ما يرى النائم- الشيخ «حمدان الأبرص» يدعوني إليه؛ لأمر وصفه بالخطير، كان يجلس في بيته الكبير وحيدًا، متفكرًا، وعلامات القلق بادية عليه؛ فقلقت لقلق شيخي، وانطلقت إلى يده المباركة الممدودة، ألثمها بشفاه الخشوع، وأضعها على رأسي المحني إلى الأرض، سحب الشيخ يده برفق، وأمرني أن أجلس قربه، وعندما مال برأسه نحوي، تحركت شفتاه المباركتان، وقال شيئًا لم أسمعه، لكنني أحسست -عندئذ- برغبة في الطيران، وبدأت أتصاعد -فورًا- في الهواء، وجسمي ينتفخ ويتضخم، ويرتفع في الزرقة الساطعة، كنت أريد لانتفاخ جسدي أن يتوقف؛ كي لا يمزقني إن واصل تزايده، لكن «حمدان» الهادي -قدس سره- رأى لي ما لم أره لنفسي، أو يدركه عقلي، فمد يده أمامه، وأمرني بالمسير، قلت: إلى أين أسير يا مولاي، وقد بلغت قدماي من الضخامة حدًا تسحقان معه ما تقعان عليه؟!

قال بصوت زاجر: سر؛ لأنني آمرك بالمسير، فشرعت في سيري على بركاته، كانت تفصل بين خطواتي مسافات يصعب تخيل أبعادها، وكنت أقطع في الخطوة بلدانًا وقارات، وأسحق مدنًا وأقاليم، وكان الناس يفرون مذعورين، عندما يحجب ظل قدمي النور عنهم، فأراهم من عليائي فئرانًا صغيرة، تتقافز مذعورة، وتحاول الهرب من موت لا تلبث أن تسقط بين مخالبه. في هذه الأثناء، كان «الهادي» يحدق في المنظر المفزع، مطلقًا ضحكات تدوي كصوت رعد مزلزل، تردد أصداءه جبال وسهول ووديان الدنيا. سارت قدماي إلى أن بلغتا «المزار»، قلت: هذه هي «دير الجسور»، يا مولاي، فجلجل صوته آمرًا: لا تتوقف، إياك أن تتوقف، اسحقها؛ لأنها لا تستحق الحياة، فرفعت قدمي عنها، ونظرت إلى الأسفل، فإذا بـ «المزار» حفرة سوداء، تنبعث منها الأدخنة، راودني فزع طاغ، فتطلعت إلى تلة «مزار الوحش»، حيث مقر سيدي، رأيته يتوهج كثلج ناصع، تنطلق منه أصداء ضحكه المجلجل الذي يهز الأكوان.

أفقت من حلمي الكابوسي، حوقلت وبسملت، وأنا أمد يدي إلى زجاجة الويسكي الجديدة التي جاء بها الحاجب البارحة، عببت منها جرعة كبيرة، أتخلص بها من جفاف حلقي، ثم نهضت من السرير إلى ملابسي، فارتديتها، وسرت نحو البلدة بخطًا سريعة، كأنني أقصد موعدًا تأخرت عنه.

حياني العسكري المكلف بالحراسة، وقد أجفل لمروري قربه كالشبح. لم أنتبه لتحيته، أو أحفل بسؤاله عن حاجتي إلى مرافقة، انحدرت من تلة الفرع إلى دير الجسور النائمة؛ آملًا أن أصادف ساهرًا من سكانها، تجولت خلال دقائق قليلة في المنطقة القريبة من الفرع، لم أر إنسانًا أو حيوانًا، أو أثرًا للحياة، تساءلت -عندئذ- أين اختفت الأشباح التي رأيتها أمس، وعما إذا كان ثمة بشر -حقًا- في هذا الوكر الخامد. كان الصمت يحيط بالأشياء وبي، وكانت الوحشة المنبعثة من الأكواخ الصفيحية تضفي الموت على جدرانها وأبوابها وأسقفها، أفزعني الشعور بوحدتي، وبأنني هدف مكشوف في مواجهة عالم من السرية والتوعد، فقفلت راجعًا إلى الفرع، وقد قررت أن ألقي نظرة مدققة على عرباوي، الشخص الوحيد الذي يبدو أنه عاش في هذه البلدة، ولم يغادرها إلا نكاية بي؛ وكي يهدم ما بقي لي من ثقة في نفسي، ويضيف إلى مخاوفي قدرًا إضافيًا من القلق والعذاب، يعزز ما أعانيه منهما.

كنت قانعًا -الآن- بأن الوقت قد حان؛ كي أتعرف خصمي، جلست وراء الطاولة كما كنت أجلس وراء طاولة مكتبي في فرع العاصمة، فتحت ملفه، وحدقت من جديد في صورته، كانت غائمة الملامح، باهتة اللون، تشبه تقاطيعها تقاطيع بشر لا حصر لعددهم، انزلقت عيناي عن الصورة إلى نص في أسفل الصفحة، قرأته فاذا به يقول: «عسكري نشيط وشجاع، منضبط وقوي الملاحظة، ومبادر، وحسن التصرف. يوضع تحت الرقابة». أثارت الملاحظة الأخيرة انتباهي، فقاومت ما كادت تثيره في داخلي من ميل إلى طرح الأسئلة،

وأنا أذكر نفسي بحقيقة لا يحق لضابط أمن أن ينساها، هي أن الأسئلة لا تعني غير الوصول بصاحبها إلى التهلكة. قرأت العبارة من جديد: عسكري نشيط وشجاع. استمتعت لوهلة بحقيقة وجود عسكريين شجعان ونشيطين في جيشنا، وحين عاودتني الرغبة في هتك أسراره، نهرت نفسي، طالبًا إليها ألا تنخدع بالأوصاف الخارجية للبشر، فالشجاع لا يتآمر، والمتآمر جبان، وإن تظاهر بالشجاعة، أو كان شجاعًا بالفعل، وقبل أن أتمتم بصوت خافت، كأن عرباويًا يجلس أمامي: اللعنة عليك يا عرباوي الجسري، ما دمت تتحول إلى ظاهرة مثيرة، تغريني بطرح أسئلة مربكة. يقولون أن الضحية تتماهى مع الجلاد، فهل تريد أنت أن يتماهى الجلاد مع الضحية؟ انتبهت إلى الفكرة المفاجئة، هببت واقفًا، وأنا أقول بصوت حانق: لست ضحية، ولست جلادًا، أنت متآمر خطِر، وأنا محقق عادل، ولد في منطقة بائسة كمنطقتك، إن لم تكن أشد بؤسًا منها، وحمل في شبابه أفكارًا ثورية، لا، ليست ثورية، بل تغييرية، إلى أن اكتشفت ما كنت ستكتشفه، لو قيض لك أن تتعلم ما تعلمته، وهو أننا لا نعيش من الأفكار، بل من الفرص التي تتاح لنا، وتزرع فينا أفكارها وعواطفها. لماذا تنظر إليّ كما ينظر بعض من في الفرع البعيد؟ أنا لم أغير أفكاري، كل ما في الأمر أنني أقلمتها مع الفرص التي سنحت لي؛ ليقيني بأن «مزار الذب «مصيرها الموت، وأن تغير الأيام يتطلب تغيير الطرق التي تتحقق بها الأفكار والأحلام.

كنت أتنفس بصعوبة، كمن يصعد جبلًا مرتفعًا، أو تربض على صدره بلاطة ثقيلة، توشك أن تحبس أنفاسه، نظرت إلى الملف من جديد، كانت صورة عربي ترتسم في خيالي قوية حية، وإن بدت ملامحها مألوفة لا تثير الانتباه، وخلت مما يسمونه العلامات الفارقة التي افتقدها الفرع في وجوه من أخفوا ملامحهم ووجوههم، من مواطني هذا القفر، ولا مناص من أن أراها لأتعرف إليها، وأكشف ما يكمن وراءها من غموض، لا ضرر إن ظل خافيًا على غيري، لكن لا يجوز أن يظل خافيًا عن عيني الأمنيتين، وعني، أنا الذي سيعرف -ما إن يرى وجه أي واحد منهم- إن كانوا بلا ملامح، أي عرباويين، فأنهي مهمتي، وأعود من دون تحقيقات، يبدو أني لن أنجزها بالسهولة التي كنت أظن أنني قادر عليها، وأعود إلى الفرع بتقرير مختصر، يقول إن أي عرباوي يحمل في ذاته بيئته الاجتماعية، بكل مفرداتها، وليس ضروريًا إضاعة وقتي وجهد القيادة في البحث عنه خارج سجن الفرع، حيث يقبع مئات العرباويين. لا بد من أن أرى، ولو «ديريًا» واحدًا؛ لأعرف إن كان جميع «الجسراويين» عرباويين، أم لا؟ تأملت الصورة مرة أخرى، وأنا أتساءل: هل يكفي أن يغيب الناس عن عيني؛ لأستنتج أنهم عرباويون حقًا؟ وكيف سأجده وسط هذا البحر المتلاطم من مواطني البلاد الذين تقول تقارير اللجان الأمنية التي حققت معه أن أنهم يشبهونه؟ هل شابت تحقيقات الزملاء أخطاء، مثلما يحدث في الحالات التي يكون التحقيق فيها مستعجلًا، تخضع نتائجه لتوقيتات قصيرة جدًا، كأن يُطلب إلينا معرفة تفاصيل مؤمراة خلال أربع وعشرين ساعة، على الرغم من أن المتورطين فيها بالمئات؟ لا أنكر الجهد الذي يبذله الفرع، حين يملأ

أحد محققيه استمارة شخص ما بالطريقة التي تجعله فريدًا وملموسًا، لا يستطيع، مهما فعل، التواري وراء صفات، أو ملامح عامة، والإفلات من أيدي رجاله وأعينهم.

ألقيت نظرة أخيرة على الصورة، يراودني شعور بالقوة، بعثه في نفسي التفكير بالفرع، لأرى عربيًا، كما يرى المرء غريمًا يخوض ضده صراع حياة وموت، حدقت فيه بتأن علني، أكتشف نقاط قوته وضعفه، وأنفذ من مظهره الخارجي إلى أغوار روحه، حيث مكمن القوة والضعف، وموطن النصر والهزيمة لدى الإنسان، فقفزت إلى وعيي -فجأة- نتائج التحقيق معه، وعجز المحققين عن انتزاع اعترافات منه، والأوضاع الصعبة التي أمر بها، فتمنيت ألا تصل الأمور إلى مجابهة داخلية بيني وبينه، لا أضمن انتصاري فيها؛ لافتقاري إلى الوسائل التي تقوض نزوعه الإجرامي، ومهاراته التآمرية التي وضعت الأمن أمام معضلة أصارع نفسي وأحوالي؛ كي أكشف العوامل والأفكار الكفيلة بإبطالها.

لأمر ما، كشفت صورة عربي علاقتي بالفرع وبذاتي، وأثارت في ذهني سؤالًا، قد يكون سبب نفوري من التعاطي مع الإضبارة الملقاة على طاولتي، قال السؤال بصوت كاد أن يكون مسموعًا: هل تصدق، أنت المحقق العارف، هذه الاستمارات والأضابير؟ وهل تؤمن بصحة المعلومات التي تضمها؟ وهل تلخص استمارة ما، كائنًا ما كان مبلغ كمالها ودقتها، حياة إنسان، وتبين مراحل عمره المختلفة، وما يعتنقه من أفكار، ويحمله، أو ما لا يحمله، من سير وتواريخ؟

هل تقبل أنت نفسك أن تلخصك استمارة تضعها بنفسك، أو تسمح لأحد أن يقلص حياتك إلى عدد من الأجوبة الغائمة، ترد بها على أسئلة ترى فيك فأرًا لا يستحق الرحمة، عليه تأكيد ما تفترضه من تهم ضده، من خلال أقوال يقر بصحتها تحت التعذيب، أو تلقنه إياها؟ أتراك نسيت حيثيات طرح الأسئلة والإجابة عنها، ونسيت ذلك الرجل الذي حققت معه ذات يوم، وكان متهمًا بإخفاء شقيقه في بيته، وبكتم معلومات، ملخصها الامتناع عن الوشاية به، وتسليمه للفرع؟ أما زلت تتذكر عجزه عن فهم أسئلتك، وإدراك مسوغاتها، وكيف ظننت أنه يقاومك، ويضلل الفرع، فأخذت تعذبه، وتتوعده باعتقال زوجته وأطفاله، إلى أن انهارت قواه العقلية، وفقد السيطرة على نفسه، وشرع يتوسل إليك أن تقصر آلامه وتقتله؟ كنت قد بدأت التحقيق معه بهدوء، لكنك سرعان ما غضبت وفقدت أعصابك، فأخذت تعذبه؛ لتهدئ من روعه، وصرت تزيده تعذيبًا من ساعة إلى أخرى، إلى أن مات؟ هل نسيت كيف أوكلت الأمر إلى عنصر لفق اعترافات تفصيلية على لسانه، حولته إلى زعيم تنظيم أوشك أن يروع الوطن، لو لم يسارع الفرع إلى إلقاء القبض عليه، في اللحظة الأخيرة؟

ماذا تقول الاستمارة التي أمامك، وهي مصدر معلوماتك الوحيد عن عرباوي؟ إنها تبرز ما كان لديه من صفات جميعها إيجابية، وتثمن سجاياه الشخصية والمهنية؟ هل تعرف له صفات غير تلك التي توردها التقارير العسكرية عنه؟ وهل تسوّغ صفاته -هذه- ملاحقته بعد اعتقاله، وربما وفاته تحت التعذيب؟ لقد جئت إلى «الدير»، وأنت قانع بأن مهمتك فيها ستُنجز خلال ساعات، وها أنت تجد

الحال على غير ما كانت تشي به التقارير، فإذا بك تحجم عن طرح أسئلة حول الوضع الذي جابهك، على الرغم من أن طرح الأسئلة هو مهمتك الأصلية، وأن عملك لا يستقيم بدونها، فهل موقفك هذا مسوغ أو مقبول؟ ما ذنب عرباوي، إذا كنت تواجه مشكلات ترجع إلى الحال العامة التي تجد نفسك فيها، ووقائع «المزار» التي حدثت قبل أن تسمع بعرباوي، أو قبل أن يعتقل؟ ماذا تفعل هنا، أيها المحقق العادل؟ وإلى أين ستصل بجهدك، وبالقيود التي تضعها على عملك وعقلك؟ هل تستطيع أن تتخيل غريمك الآن، وأن تخمن مراحل حياته الأساسية، وأنت بالكاد تستطيع التعرف إليه، لو صادفته في الطريق، أو فتح باب غرفتك بعد هنيهة ودخل إليها؟ سيبقى عرباوي سرًا غامضًا بالنسبة إليك وإلى الفرع، إن واصلت النظر إليه بعدّه متآمرًا، وستعرفه إن صدقت استمارته العسكرية التي وضعتها جهة تعرف رجالها، وتفهم مستلزمات الأمن الوطني، والآن، إلى أي جهة تميل، إلى ظنون الفرع، أم يقين الجيش، الحكم المسبق، أم التقويم الدقيق، والكذب أم الحقيقة؟ حاول أن تتعرف إلى الرجل وأن تنصفه، فقد تصل إلى شيء ترضي به ضميرك، شيء تعرفه أنت، كما تعرفه «دير الجسور»، وهو أن عرباوي لم يهبط من القمر، بل انتمى إلى شعب هذه البلدة الذي ألف نوم النهار ويقظة الليل؛ ليضمن لقمة البؤس له، ونعيم الثراء لغيره، ويأمن على حياته التي قررها له سادة، ربما لم يره أحد منهم. إن عرباوي ليس مولودًا غير طبيعي، بل هو ابن «الدير»، تحدر من صلبها، وتكون في رحمها، وعاش كما يعيش البشر، ولعب مثلما يلعبون، ومرض كما يمرضون، وضحك وبكى، كما يضحكون ويبكون، وخدم وطنه كما

يخدمون، واعتُقل كما يعتقلون. أنت تعرف أن الفرع لا يريد نتيجة كهذه، ويطالبك بقرائن تدين العرباويين، لكنك تعلم أنني لا أعني ما يريدونه هم، بل ما سيبقى في ضميرك أنت، ما ستعرفه وحدك، وتتذكره ساعة تختلي بنفسك، أو تضع رأسك على الوسادة قبل النوم، وما سيثب إلى ذهنك عندما تطلب إلى أطفالك ألا يكذبوا، وتسمع أن عرباويًا أدين وأعدم بعدّه متآمرًا، وما ستؤكده لنفسك، وأنت تؤيد أمام رفاقك ورؤسائك ضرورة سحق العرباوية، وإبادة العرباويين. تأمل هذه الاستمارة، وتساءل: لم هي فارغة، أو شبه فارغة، ثم قل لي رأيك في الواقعة الرهيبة التي أصابت مئات العسكريين بخرس قاتل، وأفقدتهم صلاتهم بالدنيا وبغيرهم، وأوصلتك إلى «الدير»، بلدة الـ»لا شيء» والـ»لا إنسان» والـ «لا وطن»؟

قمت من جديد أذرّع الغرفة جيئة وذهابًا، وأنا بين يدي حالة عرباوي المعذبة، دخل الحاجب لينظف الغرفة، وينفض الغبار عن طاولتي وسريري، رأى الإرهاق على وجهي، فاقترح أن أتنزه في الحديقة، ريثما ينهي عمله، اتجهت نحو نافذة تطل عليها، لأرى الحديقة التي أشار إليها بإصبعه، فإذا هي بركة وخامية، فيها قليل من الماء، تحيط بها فسحة صغيرة من أرض معشوشبة، يبرز منها تراب دامي اللون. اقترب الحاجب مني، بعد أن فرغ من تنظيف مكتبي، وحين لاحظ تعابير وجهي، قال معتذرًا: زرعنا الورد مرات عدة فيها، فلم ينبت أو يعش في أرضها، فأمرنا رئيس الفرع بالتوقف، ريثما تأتينا تربة أخرى.

هذه هي الحديقة إذن، تذكرت أنني حققت ذات يوم مع محافظ إحدى مدننا الكبرى، اختلس الأموال المخصصة لبناء سد يردّ عنها الفيضانات السنوية الهائجة، وحين انكشف أمره، سارع إلى إقامة تماثيل للقائد الخالد، أحاطها ببرك مملوءة ماء، أو تساقط الماء عليها، ومنها، إلى ممرات تخترق شوارع المدينة، تمثله في أوضاع مختلفة، هو فيها -تارة- ملاك مجنح ينفر منه الماء، وطورًا إله خصب، يتساقط الماء من أصابع يديه وقدميه، أو عامل يشمر عن ساعدين جبارين، يمنحان الماء لأطفال تحلقوا حوله، والورود في أيديهم، أو عسكري فاتح يمد سيفه البتار نحو عدو مجهول، يتساقط من سلاحه الماء، بينما يفر أعداؤه ويستسلمون، أو فلاح يحرث الأرض ويسقيها ماء يتهاطل عليها من فم أبقاره. عندما جاء يوم الافتتاح، وتجمع الناس في الساحات التي أقيمت حول التماثيل، نفر الماء من البرك والمساقط، واندلق من الشلالات، وانقطع عن البيوت، وغاض في الآبار، وبعد أيام من المهرجانات أمر المحافظ السكان بالاستسقاء من «ماء القائد» الذي يجري في أقنية، حُفرت ضمن شوارع المدينة العطشى.

هنا تراب دام يقتل الورود، وهنالك برك أفرغت البيوت من الماء، وجلبت العطش إليها، قال هذا مغمغمًا بعد «نزهته» في الحديقة، ثم غادر الغرفة التي كان الحاجب قد أثار ما فيها من غبار، وانطلق نحو البلدة، لا يلوي على شيء، كان توقه إلى رؤية أحد من سكانها قد غدا جارفًا، والتحدث إلى أحد من خارج الفرع المحلي قد صار علاجًا لروحه الممزقة، وخلاصه من فكرة تسللت إلى عقله، أقنعته أن إرساله إلى «دير الجسور» لا يمكن أن يكون غير انتقام منه، وأنه

لن يعود إلى القمة التي كان فوقها، بعد أن ألقته قيادته إلى منحدر الدير الذي لن يعود في نهايته إلى العاصمة غير محطم النفس والعقل، ثم يركن في مكان مهمل من أمكنة الفرع، رجلًا تحت الأعين، أو موضوعًا للتندر، وفزاعة يخوفون بها الضباط الكبار من أمثاله، وعبرة لمن لا يعتبرون.

كانت أزقة البلدة فارغة كعادتها، وكانت كل خطوة من خطواته تثير زوبعة صغيرة من الغبار الهش، والريح الصحراوية اللاهبة تصفعه بسياط من إبر مشتعلة، اندفع يسابق رغبة محمومة لاكتشاف أي أثر من آثار الحياة في البلدة، كان قد شرع يسير كمن يجري، وصار يزيد سرعته بمرور الوقت، إلى أن أحس بالعجز عن كبح اندفاعه نحو قوم خالهم يلطون له في مكان ما، يخضعونه للعبة، لا يعرف سببها أو قواعدها، هي العرباوية عينها، كلعبة تخف متقنة ولئيمة، تتلاعب من خلالها بالفرع، مبقية دومًا طابعها الخفي الذي تقلب به نظام الأشياء، وتبلبل القيادة. كانت خطواته لا تني تتسارع، وكان لسانه يكرر بوتيرة آلية كلمات محددة، خشي أن ينساها إن توقف عن تكرارها، هي الآتية، على وجه التقريب: «سيدي رئيس الفرع، العرباوية لعبة، أقنعتني «الدير» أننا لن ننجح في مواجهتها، على الرغم من أنها تستهدف وجودنا». بدا له أنه كشف سرًا خطيرًا، وأيقن أن التحقيق في العلة الكامنة وراء العرباوية هو ما يستحق الاهتمام، وأن تفتيشًا جديًا عن هذه العلة سيتوصل إلى أن منبعها الحقيقي يتخطى «الدير» إلى أمكنة البلاد جميعها، ولا سيما «المزار» منها، الموضع الذي جاءت العرباوية ردًا عليه.

لم يطرح على نفسه أي سؤال، بعد اكتشافه هذا؛ إذ انتصبت الحقيقة أمامه ناصعة جلية، فرأى العرباوية تحتل البلاد، وتندس في كل مكان، وفي كل شخص، وكل فكرة وإحساس؛ فهم -عندئذ- أن تصرفات ضابط الفرع وعناصره لم تكن ابنة المصادفة، وتأكد أن إرساله الى «الدير» لم يكن قرارًا عاديًا، فحسب، ولو كان قرارًا عاديًا لما صدر بعد عودته من «المزار»، حيث دفعته يد القدر (أم تراها يد العرباوية؟) إلى نفق لا نهاية له، ولا مخرج منه؛ فلم يعد الموضوع -الآن- إجراء تحقيق، بل معركة حياة وموت، سيخوضها ضد كل شيء، وأي شخص، وسيشك خلالها في كل شيء، وأي شيء، وسيحذر من كل شيء، بما في ذلك نفسه التي أمسك بها مرارًا، وهي تجنح نحو التعاطف مع عرباوي، وتبدي بعض التفهم حياله، وتصدق ما تضمنه تقويم قطعته العسكرية من مزاياه.

عاد إلى الفرع، رجلًا جديدًا لم تعد مهمته دراسة الأحوال الخارجية للأخطار العرباوية، فحسب، بل تحصين نفسه، والقيادة، منها أيضًا، وإخراجها من نفسه وعالمه، وعلى الرغم من أنه لم يبصر في البلدة علامة على الحياة، فقد استغرب دهشته الأولى من أمر طبيعي كهذا، وأرجعها إلى تأثيرات العرباوية الخفية التي حالت بين بؤسها المغمور بالرمال، وصدور أي اعتراض عليه. أقلقه قليلًا أن تكون العرباوية، الصامتة والمتسللة والزاحفة والمتغلغلة إلى كل مكان ونفس، جواب الضعف والجوع والبؤس على الفرع؛ فقال عندئذ: لو أن العرباويين خرجوا في تظاهرة، لأبدناهم بوابل من الرصاص، ولو طالبوا بالخبز، لقدمناه لبعضهم في القبور، وبعضهم الآخر في السجون، ولو أرادوا

الدواء، لوجدنا لحالهم ألف دواء، لكنهم لا يفصحون عن دواخلهم، بل يصمتون ويهجعون في سكينة وادعة، بينما يقتلنا قلقنا ويزلزلنا صمتهم.

كان النهار قد شارف على الانتهاء، وأخذ عناصر الفرع يستيقظون تباعًا، وجاء الخبيث يسأله إن كان قد أخذ كفايته من النوم، ثم أبدى استغرابه من بقائه مستيقظًا خلال النهار الثاني، على التوالي، وأعلمه أن البحث عن سكان «الذير» في النهار لن يكون سوى مضيعة لوقته الثمين، وأنه سيصحبه في مشوار، يعرفه خلاله على أهالي البلدة، ورجاه أن ينقل إلى العاصمة صورة عن العمل المضني الذي يقوم به ورجاله، من دون مكافأة أو إثابة.

كان وقع الكلام حسنًا هذه المرة أيضًا، جعله يوقن بأن الوحشة لعبت دورًا في ما هو فيه، وأن رجعة الأمور إلى طبيعتها كفيلة بإعادته إلى طبيعته، ارتاح لما بلغه، وساده إحساس بعدم وجود أزمة من النوع الذي تصوره هواجسه ومخاوفه، ولام عقله على الانسياق وراء وساوسه، وقرر أخيرًا مكاشفة القيادة بما في رأسه من مشكلات، ما إن يعود إلى العاصمة؛ لتتخذ ما تراه من تدابير، حتى إن كان هو موضوعها. بانتعاشته المتجددة، تصاعد داخله شعور بالواجب، أخبره بأن من يحمي نظامًا عليه أن يكون قانعًا أشد القناعة به، وبصحة ما يصدر منه، فلا يهتز قوامه المعنوي، أو يتأرجح من دون توقف بين الصحو والغفلة، الماضي والحاضر، الشك واليقين، والغياب والحضور.

ما إن ركب ضابط الفرع إلى جانبه في مقعد السيارة الخلفي، حتى انطلقت مسرعة نحو البلدة التي يلفها النهار الصيفي اللاهب بغلاف غباري حار، وبعد قليل، بدا شبح إنسان يسير وحيدًا في زقاق طويل وضيق، لم يتصور أنه موجود في مكان كـ «الدير»، كان الرجل متلفعًا بعباءة صفراء بلون الرمل، فبدا كسراب غباري، تجمع في قوام إنساني يتحرك نحو الفلاة، في نهاية الزقاق الطويل. ركز بصره على الشبح البعيد، والفرحة باكتشاف إنسان «دير الجسور» تداعب خياله، وتعده بانتصار مأمول، التفت الشبح إلى الخلف، حيث السيارات، وخطا خطوة جانبية غيبته عن الأنظار، وكأنه يفر من خطر، بدا الزقاق -عندئذ- نفقًا يلوح منه الأفق البعيد، لا يعكر صفوه الخيط الأصفر الذي كان إلى ثوان قليلة يتحرك فيه، وحين وصلت السيارة إلى المكان الذي كان فيه الرجل، لاحظ خلو الجدار من الفجوات، فسأل الخبيث إن كان رأى ما رآه هو، فأنكر الخبيث أن إنسانًا أو شبحًا كان في النفق، عندئذ أيقن أن الأمر لم يكن طبيعيًا، وأن ما كانت تجاربه تقوله صحيح، وهو أن «الدير» ليست موطن بشر، وأن عرباويًا لا بد من أن يكون ملكًا من ملوك الجان؛ إذ بوسعه أن يكون حاضرًا وغائبًا في الوقت نفسه، وقادرًا على كل شيء، وفي أي وقت، وأن هذا هو التفسير الوحيد لظاهرته. تساءلتُ، والسيارة تنطلق بسرعة خاطفة في النفق، عن نوع الجني الذي رأيته، وذكرني بحكاية عن أحد أعمامي، حكتها لي جدتي في طفولتي المبكرة:

ـ كنا في تلك الأيام نزرع القمح والشعير، ونخبزه في البيوت، وكان جدك يرسل عمك إبراهيم إلى قرية بعيدة، حيث الطاحونة

الوحيدة في المنطقة، فكان عمك يستيقظ قبل طلوع الفجر؛ ليضع كيس الشعير على ظهر حماره، وينطلق خلل غابات تعج بالوحوش والكواسر، وذات مرة، وصل -خلال عودته في الليل- إلى وادي جهنم، فحرن حماره، ثم تراخت ساقاه، ولم يعد قادرًا على الوقوف، فسقط، واندلق الطحين على الأرض. لم يفهم عمك ما حدث، فقد ظن -أول وهلة- أن دابته رأت ضبعًا أو ذئبًا، فسارع إلى معاونتها على النهوض، وهو ينهال عليها بعصاه، لكن جهده ذهب سدى، تلفت يمنة ويسرة، عله يرى الوحش الذي أخاف حماره، وحين لم يعثر على شيء، أيقن أن الدابة هلكت من التعب وطول المسير. وفي هذه اللحظة سمع صوتًا يناديه باسمه، كان صوتًا مألوفًا، سمعه مئات المرات من قبل، وإن لم يتذكر اسم صاحبه، قال الصوت: دع حمارك يستريح وتعال معي، تعال معي، ولا تخف، يا إبراهيم. انتفض عمك، ورد بصوت حازم: إذا كنت تعرفني، فأنت تعلم -ولا شك- أنني لا أخافك، ولو كنت ملك الجن الأحمر؛ فأجاب الصوت الآتي من العتمة: أنا هو ملك الجن الأحمر. ارتخت ساقا عمك، وأحس بدنو أجله، فقد كان يعلم من قصص عجائز «المزار» أن الجن أقوى من البشر، وأن الأحمر منهم نسل شيطاني، بلغ من الكفر حدًا تحدى معه رب العزة والجلالة، فكيف لا يخافه، وأي حماقة أن يقاتله، وهو وحيد في واديه المرعب!

قرأ الملك ما دار في خلد عمك، فاقترب منه، ووضع يده على كتفه، وقال ملاطفًا: أنت زينة رجال الدنيا؛ لذلك، قررت أن أزوجك من ابنتي الوحيدة، فتعال معي إلى عرسك. لم يتذكر عمك

إن كان قد سمع، في اللحظة عينها، صوت الطبل والمزمار، أم إنه كان مسموعًا، ولم يتبينه؛ لشدة خوفه. تناهى إليه الغناء، فسار وراء الملك الذي ساقه إلى صبية يتدلى شعرها كأغصان الصفصاف النهري، وتلتمع عيناها كجمرتين متقدتين، ويفتر ثغرها عن أسنان صفتها بإتقان يد -استغفر الله ربي ولا أشرك به أحدًا- إله الجن. سكر عمك لمرآها، ولم يعد يرى أحدًا غيرها، أو يسمع صوتًا غير صوتها، وهام بها من ساعتها، وشرع ينتظر انتهاء العرس؛ ليختلي بها كما يختلي زوج بزوجه. انتهى العرس، ونهض الحاضرون -أخيرًا- إلى بيوتهم، فرأى عمك -حينذاك- بينهم رجالًا من أتقياء «المزار»، بل إنه رأى رجلًا يشبه أباه، فتذكر كلام التقي الورع، «أحمد الصالح»، شيخ قريته الذي أخبر ذات مساء أن الإنسان نصفه بشر، ونصفه الآخر شيطان، وأن أحدًا -غير الله- لا يستطيع التمييز أو التفريق بين النصفين.

نهض عمك السكران بنشوة الجمال إلى مخدع عروسه، حيث أمضى ليلة بات بقية حياته يتذكر ما جرى له فيها. وفي صبيحة اليوم التالي، وجد نفسه وحيدًا في الوادي، لا أحد إلى جانبه غير حماره الذي كان ينظر إليه، وكأنه يستفسر عن سبب بقائه في الغابة الليل كله. لم يصدق -أول الأمر- أن السعادة أفلتت من يديه، فأخذ يبحث عنها في أنحاء الوادي كمن مسه جنون، وعندما لم يعثر على ما يعينه على فهم ما جرى له، عاد إلى القرية؛ فوجد في انتظاره أبًا غاضبًا، وأمًا قلقة، وأخوة جياعًا. بدا إبراهيم مُضيعًا عقله، بينما ظهرت على الأب إمارات الإثم الذي اقترفه، فأخذ يتحاشى نظرات ابنه الاتهامية. ومنذ ذلك اليوم أقلع عمك عن الذهاب إلى مقلع الحجارة، حيث كان يعمل، ولزم

الوادي لا يبرحه، إلا عندما يقتله الجوع. وبعد أشهر أقلع الناس عن الاهتمام به، واتفقوا على أن الجنون أصابه وأودى بعقله. كان ابراهيم يذهب كل صباح إلى وادي جهنم، إلى أن عاد منه ذات يوم بطفل صغير، قال إنه ابنه، فدب في القرية خوف لم تتخلص منه بعد ذلك، وانقسم القوم فيها بين مصدق خائف، ومكذب أشد خوفًا.

انتبه إلى صوت الضابط، وهو يعلن بلوغهم نهاية البلدة، ووصولهم إلى الصحراء، بحر الوحشة والموت، كما وصفها. نظر أمامه مباشرة، فإذا بالسراب يعصف بالسماء، والعجاج ينطلق في الاتجاهات جميعها، ويدور حول نفسه؛ مكونًا أعمدة غبارية كثيفة، تحجب ما عداها، وبالحر يتصاعد منها كأبخرة تطلقها مواقد متأججة، وبسواد قاتم يغطي القسم الأدنى من الغيوم، فيبدو وكأنه يوشك أن يدفن ما تحته في جوفه. كانت السيارة تغذ السير في فراغ ينبسط أمام عينيه اللتين لا تريان شيئًا غير العجاج والسواد الخالي من أي شيء سواه، حجرًا كان، أم نباتًا، أم حيوانًا، أم بشرًا.

تطلع حوله، يريد أن يخترق ببصره هذا العدم المتجانس؛ علّه يرى نقطة ما تثير اهتمامه، فارتطمت نظراته ببحر من الرمال، عاتم وهائج؛ التفت إلى الخلف، إلى عكس اتجاه السيارة، فبدت «الدير» من بعيد بلدة شبحية، ترتفع قليلًا عما يجاورها، وبرز فيها الفرع على تلته، فضلًا على رأس مئذنة مسجدها المتداعي، بينما لاح بعض بيوتها، وكأنها قبور دائرة، هدمت الريح والحرارة جدرانها التي بانت كأصابع في أيد ترتفع نحو السماء، فقدت سواعدها. عنّ له أن يقترح

على ضابط الفرع تسميتها بـ «دير القبور»، لكن انقباض نفسه، وتلاشي قدرته المتجدد على التواصل مع الخبيث حالا دون ذلك، ولا سيما أن الأشياء اخذت تبدو له على حقيقتها، وأن «الدير» لم تعد نقيض العمران وحده فحسب، بل غدت نقيض الحياة، ونهاية العالم، وعالم النهاية، أيضًا، فكز -عندئذ- على أسنانه، وقال بصوت سمعه الضابط ومرافقوه في السيارة: إذا لم نقض عليك يا «دير القبور»، زحف العرباويون في جميع الاتجاهات، وتغلغلوا في نفوسنا وأفكارنا، وفتحوا أشداقهم لالتهامنا، قبل أن تلفظنا -أنت- إلى الصحراء، وقد أحلتنا إلى سراب أجوف، يشبه سكانك الذين لا يعملون ولا ينتجون، ولا يتعلمون، ولا يمرضون، ولا يسافرون، ولا يحزنون، ولا يموتون، ولا يعيشون، بل يوجدون، فحسب، من دون مسوّغ أو غاية، سوى الفتك بنا، وانتزاع مواقعنا وأدوارنا.

كان مرافقه قد بدأ ينظر إليه بدهشة، وقد أيقن أنه لم يكن يصغي إليه، وعلى الرغم من ذلك، واصل -بعد قليل- حديثه الذي قطعه، وهو ينتظر وقعه على من شرع يسميه «سيادة العقيد»: ذهبوا إلى العاصمة، فقابلوا وزير الزراعة، وحصلوا منه على إذن بزراعة آلاف الهكتارات من أراضي الرعي، على الرغم من أن فلاحتها ممنوعة بقرار من الوزير نفسه، وعندما جاؤوا إلى المحافظ بإمضاء الوزير، وافق المحافظ على زراعة الأرض، كذلك فعل مدير الزراعة. أما هم، فكانوا قد زرعوها بأمر من فرع العاصمة، وحصدوها، ونقلوا القسم الأكبر من محاصيلها إلى البلد المعادي، ووزعوا الحصص والأنصبة على حماتهم من المسؤولين هناك وهنا، تاركين للجسراويين جزءًا من

الفتات القليل الذي حصل عليه شيوخهم، وهذه الرمال التي تدفنهم في أكواخهم.

سألت محدثي بلهجة تخلو من الاهتمام الشخصي: هل موافقة الوزير ضرورية لزراعة البادية؟ نظر إليّ باستغراب، كأنه أمسك بي متلبسًا بجريمة الجهل بأساسيات حياتنا، وقال: يحكم القانون على من يعتدي على أراضي البادية بالإعدام، وأضاف بعد لحظة صمت، وكأنه قرر خلالها كبت قوى تتحفز داخله للانطلاق: تعلمون -سيادة العقيد- أن أراضي البادية مخصصة للرعي، ولولاها لما كانت لدينا ثروة حيوانية. سكت من جديد، يستجمع جرأته، قبل أن يلقي نظرة استفزازية نحوي، ويسألني بصوت صارخ: ماذا سيبقى من بلادنا، إذا اقتسمها بضعة أشخاص؟ حدجته مستنكرًا، إذ لم أفهم -أول وهلة- ما رمى إليه سؤاله، وحين فهمت، أفقت، وقلت مؤنبًا: مهمتنا هي حماية الوضع القائم من دون طرح أسئلة، بل أكثر من ذلك: مهمتنا -ضباطَ أمن- تقتصر على منع المواطنين من طرح أسئلة. قاطعني، وهو يرمقني بنظرة حاقدة، تصحبها ابتسامة لؤم غطت وجهه، فهمت منها أنه يلمح إليّ ويتهمني، فقلت، وقد شرع الغضب يجتاحني: سأحقق في ما تقول؛ لأن متابعة موضوعات تمس المصالح العليا للدولة تدخل ضمن المهمات التي أسندها إلى نفسي. فرسم ابتسامة لئيمة على وجهه، وهو يغمغم: كل من يأتون إلينا -في هذا الوقت من العام- يقول الشيء ذاته، فهم قادمون للتفتيش والتحقيق والتدقيق، لكنهم يغيرون آراءهم بعد حين، وينصرفون لتنفيذ المهمات الحقيقية التي جاؤوا من أجلها.

استفظعت هذا القدر من الوقاحة، نهرته، وذكّرته بأن النظام العسكري يفرض عليه التحدث بأدب وتوقير عن رؤسائه، ومعهم، وأن موقعه لا يمنحه أي حصانة تعفيه من الانضباط العسكري، وعليه إعداد قائمة، يسلمنيها غدًا، بأسماء من تورطوا في تهريب أي شيء إلى خارج البلاد، أو قبضوا رشوة من أي طرف. كنت أتحدث بانفعال عصف بكياني، وأتوقع أن ينكمش على نفسه، ويعتذر ويتراجع، ويستعطف ويسترضي، فإذا به ينظر إلي كأنه اكتشف الآن، وبمحض المصادفة، وجودي إلى جانبه في السيارة، ثم انفجر في ضحك فاجر، لم يتوقف طوال الطريق التي بدت في الإياب أطول بكثير منها في الذهاب.

ترجلت من السيارة أمام الفرع، وأنا في أشد حالات الاستياء والغضب، كنت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي؛ لاكتشافي هذا القدر من التعاطف مع العرباويين لدى ضابط أمن، يفترض به أن يكون أكثر أعدائهم صلابة وقسوة، وأن يتحاشي العرباوية، وألا يحول أحاديثه معي إلى اتجاهات لا تهمني، أو من ضمن مهمتي، أو خطرت لي في بال. عجبت لظني أن الخبيث كان يؤيد تحقيقاتي في «الدير»، على الرغم من أنه أبلغني اليوم أنها ليست ذات موضوع، ولا تستحق الاهتمام؛ لأن نتائجها معروفة سلفًا، ولأنها لن تفضي إلى شيء، فضلًا على أنه لم يصدق ادعائي حول تكليفي به، وقدومي الى «الدير» لإنجازه. فكرت بعد عودتنا الى الفرع المحلي، بالرجوع إلى العاصمة؛ لتدارس الأمور، وتوفير ضمانات تتكفل بنجاحي، وهو الرد الوحيد على تواطؤ الخبيث، ومن يقف وراءه، وفشلي [illegible]

الدور الذي لعبه في العثور على حاضنة العرباوية المجتمعية، أو الاقتراب منها، فحسب، على الرغم من قناعتي بأن جذورها راسخة فيها أيضًا.

خطرت لي أفكار أخرى حول الخبيث، منها تكليف نفسي بإدارة فرعه، ريثما يُعيّن بديل منه، لكنني استبعدتها الآن، مثلما استبعدتها في لحظة يأس وضعف سابقة، ولا سيما أن خطوتي ستكون قمينة بجعل رؤسائه يتمسكون به، هذا إذا لم تتزايد قيمته في أعينهم، ما إن يعلموا بنجاحه في تعطيل مهمتي، وإعاقة عمل فرعي في «الدير»؛ فعزفت عن الفكرة، واستبدلتها بتقرير عاجل، أُرسله إلى العاصمة، طالبًا حل المشكلة الإدارية غير المتوقعة التي غدت عقبة يصعب علي تجاوزها بوسائلي الخاصة، والصلاحيات الممنوحة لي، على الرغم من أنها حالت إلى اليوم، وستحول في المستقبل أيضًا دون قيامي بالعمل الموكل إلي.

ما إن دخلت غرفتي، حتى غيرت رأيي، المرة العاشرة ربما، وطلبت من عامل الهاتف إيصالي بقيادة الفرع في العاصمة؛ لأنْ لا جدوى من إضاعة وقتي في مراسلات عقيمة، لن تفيد في التصدي لحاجتي إلى تسهيل عملي، أو مساعدتي في تحقيق أي شيء في أجواء الفرع المحلي و»الدير».

انتظرت المخابرة المستعجلة مدةً، أقنعتني أن من بتُّ اسميه «الخبيث» قد عرف نيتي، وأصدر أوامره بعدم تلبية طلبي؛ لذلك، لم يبق لي غير كتابة مذكرة عاجلة، تشرح ما حدث، أرسلها في اليوم

التالي ببريد الفرع المحلي. سأجلس -الآن- خلف مكتبي؛ لأخط النص الآتي:

سيدي رئيس فرع الأمن العسكري

توجهت بعد ظهر هذا اليوم في جولة تفقدية إلى المناطق المحيطة بـ «دير الجسور»، بصحبة رئيس الفرع المحلي التابع لشعبة الأمن الخارجي، فإذا به يروي تفاصيل ما أسماه فضيحة نقل القسم الأكبر من محصول الحبوب والقطن إلى البلد المعادي، متهمًا كبار المسؤولين بزراعة أراضي البادية، وباقتراف مخالفات قانونية فاضحة، ألمح في نهايتها إلى أنني جئت إلى المنطقة بحجة وهمية، هي التحقيق في خلفيات العرباوية، بينما مهمتي الحقيقية هي قبض حصة قادة الأمن العسكري من زراعة البادية، وتهريب محاصيلها ومواشيها. رجاء أخذ العلم، واتخاذ ما ترونه من تدابير؛ تسهيلًا لمهمتي التي ستبقى معطلة من دون تدخلكم.

العقيد عاصي الخالد

فُتح باب الغرفة، ودخل الضابط، تعلو محياه ابتسامة تشي بأنه نسي ما قاله، أخذ كرسيًا وضعه قربي، لم يجلس عليه، وإنما وقف وراءه ساندًا مرفقيه إليه، وقال بلهجة هادئة، تقصد أن تكون واضحة: إذا كنت قد أغضبتك، فأنا لا أتحمل المسؤولية عن ذلك، أنت تشك في صحة ما قلته لك؛ لأنك لا تعرف الوقائع، وربما كنت لا تريد معرفتها. أرجو أن تنسى ما حدث، مع أنني أعرف جيدًا ما قلته، ولا أخشى عواقبه. كل ما في الأمر أنني ظننت أنك آتٍ للتحقيق في العملية الكبيرة، ولقبض حصة المسؤولين في العاصمة؛ بحجة التحقيق في حكاية متآمر اسمه عرباوي الجسري، تقول معلوماتنا أنه ليس من هذه البلدة، ولم يكن فيها يومًا. لكن برقية وصلت منذ لحظات تؤكد أن مهمتك هي البحث عن هذا الجسري، ودراسة الخلفيات التي أنجبته، وبما أنني أصدق هذا، فإنني أعرف الآن أنه لا علاقة لك بالقبض والمحاصيل والتهريبات الكبرى، وأرجو أن تعد ما حصل سوء تفاهم، فحسب، وألا ترى لك مصلحة في إثارته؛ لأن لإثارته ستكون ذيول كبرى، يصعب تقدير نتائجها، بالنسبة إليك، وإلى كثيرين غيرك.

كان صوته هادئًا وتصالحيًا. سألته إن كان هو نفسه ينال حصة مما اسماه «الحك»، فأجاب بلهجة تخلو من الانفعالات التي تثيرها استفسارات كهذه: بطبيعة الحال. إن حصتي تصلني بانتظام، وإن كانت تتقلص من عام إلى آخر؛ نتيجة لتزايد أعداد الآكلين. مد يده ورن جرسًا قريبًا من طاولتي، بحركة تنم على الألفة، جاء الحاجب بفنجانين من القهوة، من دون أن يطلب إليه ذلك، ووضعهما على

الطاولة، بينما كان يشعل سيكارة، ويستأنف حديثه: علمت أنك لا تدخن، ليتني أستطيع الإقلاع عن هذه العادة السيئة. أخذ رشفة من القهوة، وواصل ما كان قد انقطع من كلام خطِر: بغير القبض، لن تستقيم الأمور، أو تستتب الأحوال. يعيش نظامنا؛ لأنه يتركنا نعيش. أحمد الله شخصيًا؛ لأنني أخدم وضعًا يعفيني من التقيد بهوامشه النظامية، ولا يحاسبني على هوامشه غير النظامية التي أعلم، كما تعلم أنت، سيدي العقيد، أنها مصدر حياته وحياتنا، وأنه سيستمر في الوجود ما دامت هي موجودة. قال هذا بثقة لا ريب فيها، ثم التفت إلي، واضاف بإصرار اتهامي: أنت لا تريد إلغاء هذا النمط من الهوامش، أو سقوط النظام، أليس كذلك، سيدي العقيد؟ عب نفسًا عميقًا من سيجارته، ونفث دخانه في الغرفة، وهو يتأملني بإمعان، وأضاف ببطء وتأكيد: كان تقريرك سيذهب إلى سلة المهملات، وسيثير سخرية المنتفعين بالهوامش، النظامية وغير النظامية، وكنت ستبدو في أعينهم رجلًا معاديًا لهم، وستهدد وضعك، بما أن بديل هلاكك سيكون هلاك العشرات من أصحاب الأمر والنهي، في فرعك وعاصمتك البعيدة.

أنهى كلامه، رفع يديه عن الكرسي، ثم وقف باستعداد، وحياني تحية عسكرية، اتجه بعدها إلى خارج الغرفة. أخرجت التقرير من درج الطاولة، مزقته إلى نتف صغيرة، ألقيت بها في سلة المهملات، وأنا أهمس بصوت يخالطه إعجاب خفي: يا لك من ثعلب ماكر!

كانت الشمس قد أشرقت منذ وقت طويل، وكنت قد وطنت

نفسي على مجاراة القوم في ما يفعلون؛ علني أرتاح من أفكار ونوازع راودتني في يومي السابقين، جعلت ضابطًا صغيرًا يتعامل معي معاملته لمرتش جاهل بأساليب عمل الأمن والدولة. خلعت ملابسي، ارتديت منامة جديدة، كانت زوجتي قد دستها قبل نحو شهر في الحقيبة التي تلازم صندوق سيارتي، ثم قصدت الحمام؛ لأغتسل من التعب، ولأن الماء لم يكن في خزانه، عدت إلى الغرفة رائق المزاج، كأنني تخلصت من عبء ثقيل، فصببت كأسًا من الويسكي، واستلقيت في سريري، محاولًا الاستسلام للنوم.

- رأيت -في ما يرى النائم- رجلين يسيران بين جبلين مرتفعين، تكسوهما غابات صنوبرية بهية الخضرة، كان أحدهما يسوق حمارًا، والآخر يمتطي فرسًا عربية أصيلة؛ قال الماشي للراكب: أعتقد أنني سأتطوع في الجيش؛ لأن الناس ما عادت قادرة على شراء القماش والصابون والملح والكبريت. فردّ الراكب: يقولون إن الجيش نفسه لا يجد طعامًا لأفراده، مهنتك تطعمك خبزًا، على الأقل. قال الماشي، وهو ينظر إلى الراكب بطرف عينيه: لا يعيش الإنسان من الخبز وحده، وتحتاج حياته إلى ما يجعلها تستحق أن تعاش. فرد الراكب بجفاء ساخر: ها قد وصلنا إلى موضوع الزواج: تريد أن تتزوج، أليس كذلك؟ هتف الماشي، وقد فقد ما كان يصطنعه من وقار: إي، والله، إن وجد من يرضى بي زوجًا لإحدى بناته. علق الراكب قائلًا: لا تعذب نفسك، فانت لن تجدَ مجنونًا كهذا. احتقن وجه الماشي، لكنه صمت؛ امتثالًا لأمر داخلي نهاه عن إغضاب الراكب.

تقدم الراكب أمام الماشي، بعد انتهاء سجالهما، وفجأة، سمع الرجلان صفيرًا ينقض عليهما من السماء، نظرا إلى الأعلى، فإذا بكتلة حجرية تتجه نحوهما، صرخ الماشي بالراكب يحذّره، وهرول مبتعدًا من حماره، تاركًا رسنه الذي كان مشدودًا إلى يده، وأطلق الراكب العنان لفرسه، بينما حرن الحمار، وجمد في مكانه، اصطدمت الكتلة بالأرض، فتوقف الرجلان، والخوف يملأ قلبيهما. نادى الماشي حماره، يأمره بأن يواصل السير، فلم يستجب، حاول إغراءه برزمة حشيش، فلم يتحرك من مكانه، فنهر الراكب الماشي طالبًا إليه إحضار حماره في الحال، وإلا تركه وانصرف، تردد الماشي لحظة، ثم سار لاعنًا حماره وحمير الدنيا جميعها. كان يضع يديه فوق رأسه؛ اتقاء لغضب الله الذي قد ينقض عليه بغتة، فيقدم رجلًا ويؤخر أخرى، ويتحرك بحذر مستعدًا للنكوص على عقبيه في أي لحظة يسمع فيها صفير السماء، بينما أخذ يتلفت إلى الراكب، من حين إلى آخر ، عله يجد طريقة أخرى، غير الضرب؛ لجر الحمار إلى حيث هما، ولما وصل الماشي -أخيرًا- إلى مقربة من حماره، وقف على رؤوس أصابعه، ومط عنقه إلى أبعد مسافة ممكنة، محاولًا رؤية الجسم الذي سقط على الأرض، لبث برهة على هذه الحال، وحين تأكد مما يراه، تقدم بهدوء نحو طير حَجَل التقطه، وصاح: إنه حَجل، يا عماه، نعمة هبطت علينا من السماء. أسرّ الراكب إلى نفسه: في الأمر سر إلهي لا يخفى على مؤمن، ثم قال للماشي: يبدو أنك رجل صالح، على غير ما يظهر عليك؛ فهذا الحَجل برهان على أن الله سيخصك برزق وفير، فهنيئًا لك النعمة الإلهية، وهذه البركة المقدسة؛ لأنها كنز لا يعادله كنز آخر في الدنيا.

امتطى الماشي حماره، اعتدل على ظهر حماره، وطلب يد إحدى بنات الرجل الذي غامر منذ لحظات وناداه بـ «عمي». كانت الفتاة أسنّ من الطالب بعشرين سنة، مقوسة الأنف، صغيرة العينين، عظيمة الحوض، ضامرة النهدين. تطلع إليه الراكب بطرف عينه، وهو يرخي الكلام من فمه: جواهر لك، شريطة ألا تنسى -ما دمتَ حيًا- التدخل الإلهي الذي فتح لك الطريق إليها، فلولاه لما أقنعتني قوى الأنس والجن بتزويجك منها. كان يتحدث، والدموع تنهمر من عينيه، وعبارات القبول المتذمّر بالقرار الإلهي المحير تحرق لسانه.

لم يكن ما رأيته حلمًا، إنه الحكاية الحقيقية لزواج أبي الذي أمضى سنوات شبابه الأولى بائعًا متجولًا، وبقي وحيدًا، إلى أن تزوج من جواهر، فعاش بقية أيامه نادمًا على فعلته التي لم يُقلع يومًا عن عدّها أكبر الأخطاء التي ارتكبها في حياته؛ إذ أذاقت أمي والدي، وأذاقها، الأمرين، وعاملته في المناسبات والفرص جميعها معاملة تفصح عن رفضها الشديد له، وجعلته -في أحيان كثيرة- يجهل إن كان مرافقًا أم خادمًا لها. وقد تباهت مرة بأنها لم تنم معه إلا مرات تُعدّ على أصابع اليد، خرجت من كل واحدة منها بواحد من أولادهما الذين ربتهم على الانتساب إلى أسرتها؛ لينسوا أصل أبيهم الوضيع. من جانبه، اعتاد أبي -مع الزمن- احتقارها، ومعاملتها بخشونة وجفاء، بل إنه أخذ يضربها، في مناسبة ومن غير مناسبة، فهل أكون أنا، العقيد في المخابرات العسكرية عاصي الخالد، بكل ما بلغته من هيبة ونفوذ، ابن مصادفة غامضة، أسقطت حجلًا من السماء، بطريقة أقنعت جدي المخبول دينيًا بقدسية أبي، وجعلت أهل أمي يرون الحكاية بعيون

العاتب على رب العالمين، ويقرؤون رموزها الدينية والدنيوية قراءة أفسدت حياة رجل وامرأة، لم يكترثا يومًا للدلالات التي وجدها جدي في المعجزة، وأمضيا عمريهما في النكد والنزق والاقتتال؟ وهل قادتني هذه المصادفة، غير الطبيعية، إلى هذه البلدة غير الطبيعية؛ لأحقق فيها، أنا النتاج الحي لمعجزة الحجل، معجزة الكشف عن أسرار مجرم لا مدخل إلى حياته، ولا سبيل إلى نفسه؟ وهل انطلقت قيادة الفرع في تكليفي بالمهمة الصعبة من الرموز الغامضة لحكاية الحجل، فرمت بي من العاصمة البعيدة على هذا الصقع الرملي المقفر، مثلما رمى العلي القدير من سماواته بالحجل إلى ذلك الوادي الموحش؟

جلست في السرير عازمًا عزمًا مؤكدًا على التخلص من الوضع الذي وجدتني فيه، وأنا أكرر حكمة، تعلمتها من إحدى أوراق تقويم قديم، ظلت معلقة في بيتنا طوال عقود، آمن أهلي بأن كل ورقة منها تحدد -بدقة- كل ما كان يجري في أيامهم. قلت مع الحكمة: «عذاب يوم خير من عذاب كل يوم.»، وأردفت: لن أستحق النوم بعد اليوم، إن فشلت في إخراج نفسي من حالتي الراهنة، وإعادتها إلى ما كانته على الدوام، نفسًا صلبة، وخالية من الاعوجاج. قالت فكرة صغيرة طنت في مؤخرة رأسي: لا عودة إلى صلابتك، من دون مراجعة المدة الماضية من حياتك، ومعرفة أسباب الخلل الذي أصاب مسارها، وإصلاحه.

أسدلت الستائر شبه المهترئة على نوافذ الغرفة، بعد إغلاق «أبجوراتها» الخشبية، أخذت قدح الويسكي الذي كنت قد صببته قبل النوم، رشفت منه رشفة كبيرة، وشرعت أتأمل شريط الأحداث الذي أخذ يمر أمام عيني المغمضتين، من دون أن يصل التأمل بي إلى نتيجة، أو يشعرني بأنه ما زال بوسعي الإمساك بأعنة وضعي، وأن قلقي في الأيام الماضية كان أكبر من أسبابه.

عدت للاستلقاء مرتاحًا إلى ما وصلت إليه، كنت أعتقد أن بلوغ نتيجة -كهذه- يتطلب عراكًا أشد مع النفس، ويمكن أن يُحدث مزيدًا من البلبلة لدي، فإذا بي أكتشف أن مشكلاتي مع «الدير» ليست وحدها التي تعترضني، وأن معضلاتي راجعة -بالدرجة الأولى- إلى «المزار»، والأحداث التي عصفت به، وألقت بي -أنا أيضًا- إلى قَدر عاتٍ، لم أكن قد أعددت نفسي لملاقاته، أو توقعته، مثلما لم تكن -هي أيضًا- قادرة على التحكم بنتائجه.

أسندت رأسي إلى الوسادة، أغمضت عيني، وأنا أقول: ستتعين نتائج عملي في «الدير» بالكيفية التي أتصرف بها، فإن استجمعت قواي، وجهت التحقيق الوجهة التي أرغبها، وتوصلت إلى حل مقبول للقضية التي تواجه الأمن، وعدت برأس مرفوع إلى الفرع في العاصمة. أما أحداث «المزار»، فحلها صار يتحدى طاقات أي فرد، مهما بلغ من مكانة، أو بلغت قدراته من التنظيم، وربما تعاقبت أجيال قبل أن نصل إلى نهاية النفق المظلم الذي أدخلتنا إليه، إذا كان مقدرًا أن نصل -في يوم ما- إلى نهايته. كنت موقنًا -الآن- بأن البلاء

الأكبر ليس في «الدير»، بل في «المزار»، وأن عرباويًا ليس سوى إفراز من إفرازاته الكثيرة المدمرة، وإن احتجبت الروابط بينهما بتفاصيل وأقوال، توهم غير العارف بما فعلته بالبلاد، أن» الدير» هي الأصل والأساس.

عاودني التفكير بـ « المزار»، فعاودتني الكآبة، وانطلقت من رأسي، وفيه، أفكار شتى، تأخذني كل واحدة منها في اتجاه؛ لتلقي بي -مجتمعة- إلى متاهات كثيرًا ما صرت عاجزًا عن الخروج منها، جعلتني دومًا أعجَب مما أنا فيه، وأستغرب تجاهل القيادة للأخطار المنبعثة منه، والذكريات القاسية التي تركها في نفوس من عايشوه، أو خضعوا له؛ عندئذ، كنت أتساءل، والدهشة تربكني، عن السر الذي جعله قادرًا على تعطيل عقول من ولدوا ونشؤوا فيه، وتابعوا أحداثه، أو رغبوا في مواجهتها، والأسباب التي حجبت وجوده عن الذين كان يفترض بهم ملاحظته، والعمل لإزالة آثاره من حياتنا، بدل تكريسها أساسًا لوجودنا.

وقفت مشكلة «مزار الذب» بين النوم وأجفاني، فلعنت في سري الساعة التي تذكرتها فيها، شددت اللحاف، دسست رأسي تحته، وأنا أدمدم: لست، ولا يمكن أن أكون، القلق الوحيد، فلأنم الآن، ولأنصرف في الغد إلى هتك ستر العرباوية، قبل أن أتفرغ -في مقبلات الأيام- للمزار.

أغمضت عيني، فإذا بصوت داخلي يسألني: هل هذه هي المراجعة العميقة المتأنية التي فكرت في إجرائها، أم لم يعد لديك من شاغل سوى النوم؟ ألا تعلم أن بلاياك ترجع إلى طول فترة نومك، وكثرة النائمين، والراغبين في طمأنة أنفسهم بأوهام كاذبة، وأقوال سهلة، كالتي أطلقتها منذ هنيهة، واستنتجت منها أنك لست القلق الوحيد، وأن الأحوال ليست سيئة، كما تظن أحيانًا؟ هل هذه هي المراجعة؟ خاطبت صوتي الداخلي قائلًا: إن مراجعة ما جرى، ويجري، تتجاوز طاقاتي الشخصية، وطاقات أي شخص آخر، وتتجاوز حاضرنا إلى ماضينا، وما ورثناه ، فقاطعني صوتي الآخر بحدة، قائلًا: أطالبك بأن تقتنع بضرورة المراجعة قبل أن تقوم بها، فهل أنت قانع بهذه الضرورة ؟ اعترضت بالقول: ما قيمة القناعة أمام العجز؟ أقول لك إنني لست قادرًا على إنجاز المراجعة بمفردي، وأن تجربة «المزار» أكبر مني ومن جيلي، فما تقبل كلامي، وتوقظني؛ طالبًا إلي الإيمان بضرورة لا أستطيع الاستجابة لها بمفردي؛ فقاطعني الصوت: ألا تستطيع إقناع الآخرين، إن كنت أنت نفسك مقتنعًا؟ أنسيت أن كل شيء يبدأ بالاقتناع، وأن على الإنسان أن يصنع قناعاته الحقيقية بنفسه؟ أليس هذا هو الدرس الذي تعلمنا إياه تجربة «المزار»؟ قطعت تدفق الكلام الموبخ، كأنني أصرف الصوت عني، إلا أنه لم ينصرف، وشرع يكرر جملة لم يحد عنها: لا بد من مراجعة كل شيء، لابد من مراجعة كل شيء، تخلصوا من «المزار»، قبل ان تتخلص « الدير» منكم.

احتلت الجملة ذهني، استقرت في مؤخرة رأسي، وطفقت أصداؤها تتردد في جسدي المتهالك، وضربات قلبي التي تناغمت معها. قلت للصوت: حسنًا، لقد أقنعتني بضرورة المراجعة، فدعني أنم، لكنه أجاب بلهجة عدائية: لن ترتاح قبل إجراء مراجعة، تحرك من «حمدان الأبرص» وأفاعيله، أيها الغافل الشقي، فهل فكرت بما عليك مراجعته؟ قلت بلهجة حازمة: سأفكر في الأمر خلال الأيام المقبلة، دعني -الآن- وشأني.

كنت آمل أن تنهي وعودي الطرق العنيف على صدغي، لكن الجملة اللجوجة لم تبارحني، ولم يبق في رأسي سواها، وأنها استأثرت بطاقاتي العقلية والروحية، وتفكيري. اعتدلت على الفراش، ثم نهضت، وفتحت النوافذ على مصراعيها؛ موطدًا العزم على ألا أرقد قبل أن يفارق الصوت نفسي التي لن أرحمها، ما دامت تطالب بالتغيير، على هذا النحو من الإلحاح البغيض؛ فاستيقظ الصوت الهائج أيضًا، وأخذ يتحدى قدرتي على إخماده. أمسكت برأسي بين يدي، أغمضت عيني، ووضعت إبهامي في أذني؛ لسد المنافذ التي يتغلغل منها إلي، وحين فشلت، قلت بصوت عال: سأطالب بمراجعة شاملة للأحوال، وسأقنع الجميع بضرورتها، ما إن أعود إلى العاصمة، وسأذهب في مطالبتي إلى أبعد مدى ممكن، ومهما تطلب الأمر.

رفعت صوتي، وأنا أقطع على نفسي الوعد بالمراجعة، لكن الفكرة لم تبرح جمجمتي، ازدادت دقات قلبي، وأحسست أن الصفرة أخذت تعلو وجهي، وأن عزيمتي تخور، فأيقنت أن الوعود ليست -بالضرورة- دواء الأفكار، وأن هذه لن تفارقني قبل إنجاز المراجعة. سألت صوتي الآخر عن معني هذه الكلمة المفزعة، والقضايا التي تجب مراجعتها، وأنا أحس بقشعريرة تجتاح كياني؛ ليقيني بأن المراجعة ستعني الإقرار بالإخفاق؛ فقلت: هذه قشرة موز، تريد العرباوية زحلقتنا عليها، ولن أسمح لها بالسيطرة علي، وإلا خنت وظيفتي ومهمتي، فصرخ صوتي الآخر: وهل تعرف ثمن الامتناع عن إجرائها، أم إنك قررت قتل نفسه بيديك؟

كان كل علاج يخطر في بالي سرعان ما يتحول إلى سبب جديد لتردي وضعي؛ حتى فقدت فقدًا تامًا السيطرة على أعضائي التي دب الوهن فيها؛ لقلة النوم، وشدة القلق، فأيقنت بأني موشك على تفكك وشيك، سأتطاير -بسببه- إلى مزق صغيرة، لن يجمعها بعد ذلك جامع، بينما كانت أفكاري تنخرط في نزاع لا يرحم، هشم ما كان باقيًا من سكينتي الروحية، فغمغمت يائسًا: إذا كانت هذه هي نتائج المراجعة عليّ، فما عساها تكون على «المزار» والبلاد؟ وهل بلغنا النقطة التي تسد أمامنا نوافذ الأمل ومخارجه، وتتركنا أمام خيار لا بديل منه، فنضع الفرع في مواجهة «المزار»، على الرغم من أنه نتاجها وحاميها المفترض.

كنت قد وصلت إلى طور من الانفعال الجامح، والصراع الداخلي المدمر؛ فاتجهت، على غير وعي، إلى مكتبي، فتحت درجًا، أخرجت منه مسدسًا، تأملته قليلًا قبل أن أوجهه إلى قلبي، أوشكت أن أضغط على الزناد، إلا أنني لم أفعل؛ لأن قلبي الكاره للمراجعة ليس هو ما يستحق القتل، رفعت المسدس إلى رأسي؛ حيث كانت الفكرة اللعينة قد تمترست منذ أول النهار، أغمضت عينيّ، مصممًا على إطلاق النار حين اقتحم الحاجب الغرفة، وصاح حين رأى المشهد: تريدكم القيادة على الهاتف، سيدي العقيد. تراخت يداي، انسدلتا إلى الأسفل؛ فسقط المسدس على الأرض، سرت كالنائم إلى الهاتف، وحين سمعت صوت رئيسي، وقفت باستعداد، أتلقى أوامره بالطاعة الواجبة، من دون أن أعبر له عن شكري؛ لأنه أنقذني.

جاء الخبيث يلقي عليّ نظرات غير مصدقة، سألني إن كنت بحاجة إلى مرافق يلازمني، فرفضت بجفاء. قال قبل أن يغادر الغرفة: الحمد لله على سلامتك، تصور ماذا كانت القيادة ستفعل بك، لو أنك فرطت بنفسك في اللحظة التي أرادتك فيها.

وضع حديث القيادة الهاتفي حدًا لحمى المطالبة بالمراجعة التي كانت قد أصابتني، من دون سابق إنذار، آويت إلى سريري مجددًا، وأنا ألعن «المزار، «و»دير الجسور»، وعربي، ونفسي الضعيفة التي أمسكتُ بها مرات متكررة خلال الأشهر الأخيرة، وهي تضعني في مآزق، وتقرب أفكاري من عالم بُنيت أمجادي الوظيفية على المشاركة في ملاحقته، والقضاء عليه؛ فأغمضت عيني، مصممًا على الاستيقاظ

قبل غروب الشمس؛ لأنصرف إلى القضية التي جئت من أجلها، وتريدني القيادة أن أفرغ منها بسرعة؛ لأن الأحوال تتطلب حضوري إلى العاصمة.

رنت الآن كلمة «الأحوال» رنينًا خاصًا في رأسي؛ يا لها من كلمة مضللة، تسمعها؛ فتعتقد أنك حيال أمر محايد، تملؤه بالمضمون الذي يلائمك؛ لتعيش فيها بالطريقة التي تحلو لك، أجزم بأن لا إنسان على وجه الأرض يعرف معنى هذه الكلمة، كما نعرفه نحن، ضباط الفرع، وليس هناك من يجارينا في إدراك ما تخفيه براءة أحرفها المحايدة، من عذاب وموت. تلذذت بترك الكلمة تطن في رأسي، تردد أصداؤها ما يقترن بها من تفاصيل، وتعنيه من نتائج لأطرافها المختلفين؛ فتذكرت -عندئذ- أنها تعني الموت والشلل والانكسار المذل، والغياب في أمكنة لا مخرج منها، وتعني إثارة قدر من الخوف والأسى، تنفرد به -عادة- الحروب والكوارث الكبرى، وتعني -أيضًا- الثراء الذي يهبط -فجأة- من سماوات الأعطيات القيادية، والجاه الذي يرتفع بصاحبه من الجحيم إلى النعيم، وعلى الرغم من ذلك، لا يرى الناس العاديون في كلمة «الأحوال» شيئًا، غير إشارة إلى أحوال عادية، وحياة لا يحدث فيها ما يلفت الأنظار. أما نحن -رجال الامن- فنرى فيها الهول والعذاب والمطاردات والاعتقالات، وكشف الأسرار وهتك الخبايا، والصراخ المفعم بالألم الذي يستمر ساعات، ومتعة تعذيب الآخرين وقتلهم عند الضرورة، فإن سألنا أحد عن الأحوال، كان كمن يطلب إلينا كشف أسرار الفرع، وخيانة مهنتنا ومعتقداتنا، ويثير لدينا شبهات تورده موارد التهلكة. قال رئيسي: إن الأحوال تقتضي

عودتي خلال أيام إلى العاصمة. قلت في نفسي: وهي التي بعثت بي البارحة إلى «دير الجسور»، وسترسلني بعد حين إلى هذه القرية، أو تلك المدينة، وهي التي تطاردني وأطاردها، من دون أن أعلم متى ترى في خدماتي نوافل لا تحتاج القيادة إليها، فما هذه الأحوال التي لا تستقر على حال، وإلى أي قمة أو درك يمكنها أن تقودني؟

تخلصت من أصداء المطالبة بالمراجعة، فاحتلت الأحوال ذهني، وانفردت ترجماتها العملية أمام عيني، فوجدتني أتمنى الخلاص من أسرها، على الرغم من اقتناعي بأنني أصبحت عبدًا لها منذ زمن طويل، وأنها طبعتني بطابعها، وجعلتني أظن أنني ما خلقت إلا لها، وأن خلاصي منها مستحيل، وخلاصها مني سهل.

ترى، ما الأحوال التي تنتظرني في العاصمة؟ هل جد لديهم جديد في قضية المؤامرة، يتطلب رجوعي الى الفرع، أم تراهم كشفوا مؤامرة أخرى ضمن خيط المؤامرات الذي ما عاد ينقطع؟ في العام الفائت، كنا نحقق من الفجر إلى آخر الليل، كان المتآمرون شبانًا صغارًا في مقتبل العمر، تملأ حياتهم أحلام وأوهام، فيوهمون أنفسهم بأنهم يحررون الجنس البشري. أما هذا العام، فنحن نحقق مع النساء أيضًا، مع نساء المعتقلين، ونساء عاملات وجامعيات وموظفات، بعد أن بدأت النسوة بالتنطح لقضايا لا تعنيهن، تفقدهن ما يتمتعن به من صفات الزوجات وربات البيوت، وتحولهن عن الوظيفة التي خلقهن الله لها، فيضيعن حياءهن وشرفهن، ويصبحن كالرجال.

سألني ذات مرة ابني البكر: بابا، لماذا قبلت العمل في الأمن؟ قلت؛ كي تسمع أمه الشاكية المتذمرة: ما هكذا يسألون، يا ولدي، لو أنني رفضت الانتقال إلى الأمن، لكنت الآن في مكان لا أريد لكم أن تتخيلوه. فقال شاكيًا: كنا في الماضي نراك، أما الآن فأنت غائب دومًا. أجبت بصوت، حاولت أن أجعله مرحًا: أنا الآن عبد للأحوال.

تذكرت صوت ولدي، وسمعت نبراته بوضوح، ورنت نغمته الحزينة رنينًا مؤلمًا في أذني. كان ياسر يوشك أن يغفو، حين تعالت شكواه: بابا، لماذا لم تعد تأتي إلى المنزل، هل أنت غاضب من ماما أو مني؟ قلت: إنه العمل، يا بني. فرد ببراءة ملاك: ألم تكن تعمل، عندما كنت ضابطاً في الجيش؟ قبلته، وقلت: كنت أعمل بالطبع، لكنني لم أعد في الجيش، أنا الآن في الأمن. ثم سأل بصوت مهموس، وقد أوشك الدخول إلى مملكة النوم: ما الأمن يا أبي؟

لم ينتظر صغيري الجواب، أغمض عينيه، وزم فمه، وعبس، تاركًا لي التفكير في السؤال الذي لا أعرف إن كنت سأجد له في أي يوم جوابًا: ما الأمن؟ لماذا لم أطرح هذا السؤال على نفسي من قبل، ولم يؤرقني انتمائي إلى الأمن قبل أحداث «المزار»؟ هل اكتشفت بعد الأحداث أن الأمن وحده لا يكفي، فداخلتني هذه الحال التي ما عدت أعرف كيف أتغلب عليها، أو أتخلص منها؟ ما البديل من الأمن، إذا كان الأمن نفسه لا يحل المشكلات ويلغي المصاعب؟ وهل صحيح ما تقوله الأغلبية من رفاق العمل: الحل هو المزيد من الأمن؟ هل الطريق التي تقودك إلى مأزق هي عينها التي تخرجك منه، كما يؤكد رفاق العمل؟

لم أعرف لأسئلتي جوابًا، فكل ما أعرفه أن مجيئي إلى الجهاز كان منعطفًا جديًا في حياتي. كنت في السابق أعدّ إبعادي من العمل الأمني ظلمًا نزل بي، وعقوبة لا أستحقها، ثم نقلت إلى الأمن بإشارة من مولاي «حمدان الأبرص»، فإذا بي داخل نفق ليس هناك أي مخرج منه، كثرت فيه أسفاري، وخرج الوقت عن طاعتي، وتحولت إلى أداة بيد قوى أجهل عنها كل شيء، سوى أنها قادرة على إبقائي في حال من البحث الدائب عن شيء لا أصل إليه، فلا أنا أتملكه، ولا هو يفلت مني، أبعث الذعر فيه، فيبعث الهواجس في كياني، حتى لأخال في أحيان كثيرة أنني أشاركه لعبة، نتوزع أدوارها بالقسطاس، لا أنا أفلح في الخروج منها، ولا هو بفالح، على الرغم من أنه يتبدى فيها بألف لون ولون، ويواجهني بألف شكل وشكل، وأكشف تبدلاته، وأتابع ألوانه؛ فأصير مرتبطًا به، على الرغم من أن المسوّغ الوحيد لوجودي هو إلغاء كل ما يسوغ وجوده.

ومع الزمن، تسللت تناقضات عملي إلى حياتي، فإذا بها سلسلة من الفوضى، وإذا بي ورقة في مهب الرغبات والأوامر المتناقضة، أو برغي صغير في آلة جبارة، تعيش لأنها تخوض حروبًا لا تتوقف؛ ولأنها لا تسمح لأحد بالفرار من سلطانها، ولا تستبعد أحدًا من معاركها، تطحن من يعترض سبيلها، وتستنزف من ينتمي إليها، تؤمن بوحدانية سلطتها وسموها، فلا تطيع أحدًا من خارجها، ولا تثق، في الوقت نفسه، بمن هم داخلها، تخضع كل شيء لمستلزمات بقائها، من دون أن تخضع لضرورات بقاء أي شيء عداها؛ لذلك، لا تميز العاملين فيها، ولها، عن العاملين ضدها، إن اقتضت مصلحتها

ألا تميز. لم أنس بعد ولن أنسى قصة رئيس الفرع الذي أخلى سبيل معتقل، من دون استئذان قيادته، فقد منعه في اليوم التالي حارس الباب الرئيس من دخول المبنى الذي كان قبل ساعات قليلة مملكته، وأبلغه نبأ نقله إلى وظيفة مدنية في مدينة نائية، بل ضربه بعقب البندقية، واقتاده إلى إحدى الزنازين، عندما أصر على دخول الفرع؛ لأخذ حاجياته الشخصية من مكتبه. وبعد عامين من الاسترحام والاستعطاف والتظلم، أخرجته القيادة إلى بيته، على ألا يخرج منه، أو يستقبل أحدًا فيه.

هزتني الحادثة حينئذ هزًا عنيفًا، وجعلتني أحمد ربي وأشكره على أنني لم أكن الضحية. وبعد ذلك سعيت طوال الوقت لأن أبقى يقظًا، لا يفلت خيط التطورات من نظري، ولا أسمح لشيء بوضعي في مواجهة الفرع أو خارجه، كنت أبقي أفكاري وخواطري طي صدري، لا أبوح بأسراري إلى أحد، أو أصادق أحدًا، أفطر بالآخرين قبل أن يتغدوا بي. لقد علمتني القصة أن الفرع لا يهزل ولا يمزح، وأنه جاهز لتسديد الضربات؛ حتى لمن يضعون حياتهم بكاملها في خدمته، أو يظنون أن انتماءهم إليه يمنحهم حقوقًا عليه، أو حصانات فيه. وبمرور الوقت، وجدتني مسوقًا إلى استبدال الأموات بالأحياء في حياتي، أزين مكتبي بطيور ونباتات محنطة، وأحنط علاقاتي بالآخرين، بدءًا بزوجتي التي قادني قلقها المتواصل عليّ، وإلحاحها الدائم على رؤيتي، إلى الابتعاد عنها، فإذا ببذور الشقاق الأولى تتحول إلى شروخ عميقة في حياتنا، لم تتوقف بعد ذلك عن التحسر على روابطي الماضية بها وبالأولاد، على الرغم من

أنني أفهمتها آلاف المرات أن حياتي ليست ملكي، أو ملك أسرتي، وأنني لا أستطيع إخبارها بكيفية تمضية أوقاتي، لأنني بتّ من أسرار الدولة، ولا أستطيع أن أشرح لها تفاصيل عملي؛ لما قد يلحقه ذلك بي، وبها، وبأولادنا من أذى. ترى أي أسرة تبقى في وضع كهذا؟ وأي صداقة؟ وأي ماض وأي حاضر وأي مستقبل؟ وأين أذهب؟ وكيف أداري مخاوفي ووساوسي وحياتي المزدوجة؟ وماذا يبقى مني أمام نفسي والآخرين؟

كانت تساؤلاتي تذهب بي بعيدًا؛ لذلك قلت للآخر القابع بداخلي: اعقل، أيها الرجل، لا تنسق كالأبله وراء أفكارك السود، اعقل قبل أن ينتزعوا عقلك الذي يضللك من رأسك. إذا كنت لا تعرف، وأنت في خدمة الفرع، عاقبة المتشككين، فماذا تعرف؟ اعقل، أيها الغبي، فأنت صاحب مال وعيال، وهم يعرفون مداخلك ومخارجك، يغمضون عينيهم عنك؛ لتغمض أنت أيضًا عينيك عما تراه، وعن نفسك، فماذا دهاك؟ اضرب الدنيا والقيم والمبادئ بحذائك العتيق، فهي لن توقف سيرها في انتظار تبدل الأحوال، ولم تعد تأبه بالآراء والمواقف والأفكار والقيم، ولن تحاسبك، أو تحاسب سواك، على ما فعلت أيديكم، فلماذا تتخلى طائعًا عما بلغته بعد حياة العناء والفقر في «المزار»؟ وفي المناسبة، على ماذا تنهض الحياة؟ سأضحك منك إن قلت إنها ترتكز على المثل العليا والمبادئ، وسأحترمك أيها احترام إن عددتها خديعة كبرى، ووهمًا زائلًا. لا تقل لي شيئًا حول الإنسان، إياك أن تطلق عليه أوصافًا، مثل: «سام»، و«نبيل»، وما شابه من ترهات؛ فالإنسان هو الوضاعة بعينها، لا تحاجج، تذكر -فحسب-

تصرفات إخوتك في الأشهر الأخيرة من حياة أبيكم. هل نسيت أيضًا ما حدث؟ يقال إن الإنسان ينسى ويعيش من النسيان، فهل تعيش أنت أيضًا من النسيان؟

كان أبوك مريضًا بالسرطان، يعاني أشد العذاب وأكثره تبريحًا، ويتعرض لموجات متتابعة من آلام نفسية لا تحتمل، معتقدًا بأن الله يعاقبه على آثام ومعاص ارتكبها، ويخرجه من الدنيا مشوهًا، بعد أن أدخله إليها سليمًا معافى. كان ينقب في حياته عن سر هذا الغضب الإلهي الذي أصاب جسده، وانتقل إلى روحه، وكان بحثه يعذبه أكثر من آلام جسده المبرحة، إن لم يكن هو سببها.

كان الرجل قد رباكم كل شبر بنذر، كما يقال، جاع لتشبعوا، عري لتلبسوا، سهر لتناموا، عمل لترتاحوا، وصارع لتتعلموا، ولم يرتح يومًا واحدًا طوال عمره الذي وصل إلى وسبعين عامًا ونيف، لم يطب له العيش دقيقة واحدة خلالها؛ لذلك كان وقع مرضه عليكم في البداية كوقع صاعقة انقضت عليكم من سماء صيفية صافية، فرفضتم تصديق تقارير الأطباء، وأعلنتم أن قوة على وجه البسيطة، أو في السماء، لن تفلح في انتزاعه منكم. فماذا فعلتم بعد حين، عندما أيقنتم أن المرض لا يأبه لأضاليلكم أو يكترث لأوهامكم؟ بدأت زياراتك -أنت- إلى القرية تتباعد؛ بحجة أنك لا تحتمل رؤية مأساة حبيبك المتفاقمة، وتمنى إخوتك موته بعد أشهر؛ بحجة أنهم لا يريدون له أن يتعذب. هكذا تغير موقفكم خلال مدة قصيرة، وصارت صعوبات السهر حول سريره واحدة من الموضوعات الدائمة لأحاديثكم

الشاكية، وأكثرتم من تأكيد الآلام التي يتكبدها من يعتنون بمرضى لا شفاء لهم، بل إنكم قلتم إن من يسهر على مريض يتعذب أكثر منه، وأن الموت هو سنة الكون ورحمة الخلق، وأنه ليس نهاية الحياة، بل شكل غريب بعض الشيء من أشكالها، فحسب. ألا تتذكر المداولات الطويلة التي تدارستم خلالها كيفية استدراجه؛ للإفصاح عن مكان وجود ما قد يكون مالًا يملكه، على الرغم من معرفتكم بحياة الفقر والضنك التي عاشها؟ وهل نسيت نزاعكم حول الطريقة التي ستقتسمون بها الأرض التي سترثونها، على الرغم من أنكم كنتم تعرفون رغبته في ترك الأمر إلى ما بعد وفاته؟

عندما جاء اليوم العصيب، كان أبوك قد فقد النطق والسمع، تحلقتم حوله، فأخذ ينظر في اتجاه كرسي قريب، خمنتم أنه راغب في الجلوس عليه، مثلما كان يفعل في خوالي الأيام؛ فتعاونتم على نقل حطامه إلى حيث أراد، وما إن جلس على الكرسي، حتى مد يده أمامه، يفتش بها عن شيء ما، فهمتم بعد حين أنه يحاول تحسسكم، وأنه فقد بصره أيضًا، فاقتربتم منه، واحدًا بعد آخر، فودعكم بأصابع حانية مرتجفة، حاولت التعلق بكم، والتمسك بحبال الحياة من خلالكم، كان يمرر أصابعه بهدوء وبطء على وجوهكم وأعناقكم، راسمًا بها صوركم الأخيرة التي سيأخذها معه، وعندما استرد يديه حاملة تقاطيعكم، كانت صلته بالحياة قد انتهت، وكان قد ولج البوابة التي تفضي إلى ساحة الهزيمة الأخيرة أمام الموت.

توزعتم كراسي الغرفة واجمين، كنتم تتمنون له موتًا سريعًا، وتظنون بأنه لن يصمد غير دقائق قليلة؛ لأن المرض التهمه، ودمر قواه، وسرعان ما سيسقطه بين مخالب الفناء الزاحف، لكن الموت لم يأت بالسرعة التي أردتموها. كان صدره قد امتلأ بالماء، فأخذ يختنق رويدًا رويدًا، إلى أن اختفت حمرة الحياة من وجهه، تاركة مكانها لزرقة تمددت إلى جسده الذي تهاوى تحت أعينكم، موقعًا بعد آخر. في البداية، تساقطت الأطراف، ثم الحواس، ولم يبق سوى قلبه الذي علا وجيبه وخفقانه، واشتد بعلو واشتداد مقاومته. كان قلبًا لطالما أحب الحياة، وتمسك بها، على الرغم من أنها غالبًا ما أرهقته، وكان يقاوم، بينما الموت يحكم حوله حصاره الذي لا يرحم، ويشدد قبضته عليه، كاتمًا أنفاسه المختنقة المتلاحقة بوتيرة متصاعدة، تنقطع حينًا كأنها نضبت من صدره، وتتواصل أحيانًا كشهقة مديدة تفتتها أصابع الهلاك الداكنة، وتنتزعها من صدره شهقة إثر أخرى؛ لتبعثرها في عالم الآخرة اللانهائي. كان احتضاره يعذب من جاؤوا يودعونه، بينما أنتم، أولاده الذين عاش حياته خادمًا لكم، تغطون في نوم عميق، وقد توزعتم غرف البيت بعد أن قلتم لمودعيه إن حضوركم إلى جانبه يعذبه، وأن تعذيبه خطيئة لن يسامحكم الله عليها. كنتم تنامون، بينما قلبه الذي أحبكم يتوقف، ثم يعيد الخفقان، ليتوقف من جديد، قبل أن يعود إلى الطرق العنيف المتسارع اليائس، إلى أن توقف، ولم يعد يخفق.

هذا هو الإنسان، وهذه هي حقيقته. إنه أشد الكائنات انحطاطًا، وأقلها جدارة بالحياة، واستحقاقًا للحب والرحمة. الإنسان دودة تظن نفسها إلهًا، تجهل أنها حشرة تافهة بائسة، تعيش على الأنانية والكذب والدناءة والخسة. أبعد هذا تعذبك وساوس وجدانية، وتقض مضجعك الأحوال، وتتفلسف عن «مزار الدب» و«دير الجسور»، كأن الإنسان لا يستحق ما يلاقيه، أو كأن عليك أن تتعذب؛ لأجل من لن يتردد لحظة واحدة في تقطيع لحمك، إن وقعت يومًا في يديه! لا تفكر بأحد، لا تقلق لمصير أحد، اذبح من يقعون تحت سكينك؛ كي لا تُذبح إن وقعت تحت سكاكينهم. هذه هي الحياة، إما معك وإما عليك، فهل من الإنسانية أن تسير، بمحض حريتك وإرادتك، إلى الموقع الخاسر في صراعك معها؟

كنتُ أوشك الانفجار من الحنق، أسدُّ بيدي مسالك الخروج من المأزق الذي دفعت بنفسي إليه، وأراقب وضعي العصيب، كمن يتلذذ به، أو يطيب لي تعذيب روحه، وإنهاك عقله. هكذا وجدتني أتقلب، مطاردًا نومًا جفاني، أغرق في بحر يقظة معذبة، أثارت في داخلي حنينًا آسرًا نحو الخدر العصي اللذيذ الذي اعتدت أن أنحدر إليه شيئًا فشيئًا، ما إن أطبق أجفاني.

سمعت في ما يسمع النائم صوتًا يقترب مني، كان الصوت يتقدم نحوي ضعيفًا واهنًا، ويتناهى إليّ غامضًا باهتًا، لم أتبينه أو أعرف مفرداته أو صاحبه. كنت أقف فوق سطح فرع «الدير» المرتفع، وكان الصوت يتسلق منحدر الفرع ببطء، فلا تدركني غير أصدائه

البعيدة، ولا يثير لدي أي قدر من الاهتمام أو الفضول. بقيت على حالي -هذه- سويعات، خلتها دهورًا، حتى ظننت أن في الأمر سرًا لا يراد لي أن أعلمه. فجأة، مزق زعيق حاد أذني، وألقى بي من عليائي.

قال الصوت: يبدو أنك ما عدت تأبه لتذكر أفعالك، يا قابيل.

قلت في استنكار: من أنت، أيها الصوت الصارخ في هذه البرية؟

رد هازئًا: ها أنت نسيت صوتي أيضًا.

صرخت بضراعة: سامحني يا أبي، لم أتبين صوتك لشدة وهنه.

فانطلق عندئذ بقوة خلتها الرعد: لماذا تقتل الناس، يا قابيل؟

- أنا لا أقتل أحدًا، يا أبي، هم يريدون قتلي، فأدافع عن نفسي، وحسب.

- ومن قتل ابن أخيك واصل، هل كان يهدد حياتك أيضًا؟

صرخت: أنا لم أقتله، لست أنا من قتله.

رفعت رأسي عن الوسادة، وحين تيقنت أن الصوت لم يعد قربي، حملقت في السواد العبق المنتشر في الغرفة، ظانًّا أن أبي في داخلها، وأنني سأراه، لكنني لم أره هو، بل رأيت شبح ابن أخي المشاكس الذي اقتاده عناصر الأمن إلى مركز التحقيق؛ ليعترف بإهانته لي

وللجيش، ويعلن ندمه، ويمضي أيامًا في الفرع، يعود بعدها إلى بيته. تذكرت الصبي اليافع، شعرت بشيء من الاستغراب؛ لأنني نسيته، ثم تساءلت في استهجان: كيف علموا بموته؟

أتاني الصوت من مكان خلت معه أن والدي يضع فمه على أذني: لماذا لم تخبرنا بموت ابن أخيك؟ انتفضت صارخًا، والعرق يتصبب من جسدي: لأنني لم أصدق أنه مات، فهو لم يفعل شيئًا، ولم يقترف جرمًا. قال الصوت، وقد هده فجأة حزن مفعم بالأسى: اللعنة عليك، وعلى أمثالك إلى يوم الدين. أفقت، وأنا أرتجف من الخوف، لم يبق إلا أن يدهمني أبي في النوم، لاعنًا ومعنفًا. ما حكاية ابن أخي التي طفت من دون مقدمات على سطح ذاكرتي؟ ماذا أفعل إذا كانت صحته لم تحتمل بعض التحقيق؟ وماذا كان سيبقى لي، لو عرف إخوتي بموته، ورأوني مجرمًا انتزع أرضهم وقتل أولادهم؟

قمت إلى النافذة أفتحها، علّ الهواء النقي يعينني على التخلص من إحساس بالاختناق، سببته الأفكار الداهمة، نظرت إلى الحديقة، رأيت طيفًا متشحًا بلباس أبيض يجتازها قادمًا نحوي، سارعت بإغلاق النافذة والابتعاد منها، لكن الطيف كان بعد لحظات داخل الغرفة، وفي بيده عصا أبي الطويلة، وقد شرع ينهال بها على رأسي، صرخت وركعت، أتوسل إليه وأستغفره، اختلطت دموعي بتوسلاتي. لكن العصا واصلت طرق جسدي بعنف وقسوة، كنت لا أتبين ملامح الطيف، بل أرى العصا تلتمع كعمود من نور، يلسعني حين يلامسني، فأصرخ مستغيثًا.

لم أعد أعرف ما عليّ فعله، اتجهت إلى السرير؛ لأختبئ تحت اللحاف، مثلما كنت أفعل أيام الطفولة. وعندما استمر الضرب، غادرت السرير، وأخذت أجري في الغرفة والطيف يلاحقني، قلبت الكراسي والطاولة الصغيرة؛ لتكون حاجزًا يحميني، غير أن جهدي ذهب سدى. بدا لي عندئذ أن العقاب لن ينتهي، وأنني هالك لا محالة، إن لم أدافع عن نفسي، فاندفعت إلى الطاولة، عازمًا على التخلص من الضرب، فتحت أحد الأدراج، وأخرجت منه مسدسًا وجهته نحو الضوء، وضغطت على زناده، سمعت صوت زجاج يتهشم، فأيقنت أنني أصبت العصا، تعالى عندئذ وقع أقدام على السلم الذي يفضي إلى غرفتي، انفتح الباب على مصراعيه، قبل أن يندفع الحراس إلى مقربة مني، مستفسرين عما حدث، نظرت إلى الغرفة المهشمة، فوجدتها خالية إلا من الكراسي المتناثرة، والطاولة المقلوبة. حدقت في النافذة، فإذا زجاجها مهشم برصاصة اخترقته، التفت إلى الحراس أسألهم بصوت زاجر: كيف دخلتم إلى الغرفة من دون إذن، لمن تركتم الحراسة، أيها البلهاء؟

إلى أين أوصلتني «مزار الدب» و«دير الجسور»؟ ولماذا أثار عرباوي الخامد كوامن حياتي بهذه الطريقة العنيفة، ووضعني في مواجهة دائمة مع نفسي التي كانت قوية ومتماسكة قبله؟ لماذا نبش ماضيّ نبشًا عنيفًا، أطاح قسمًا كبيرًا مما استقرت عليه عواطفي وأفكاري في العقدين المنصرمين، ووصل الآنس إلى مرحلة أخذت تهدد حياتي؟ هل يكون قادرًا على تصفيتي قبل أن أبادر إلى تصفيته؟ وهل يمكن أن يكون قد أدرك القصد النهائي لمهمتي، فسارع إلى

الاندساس في داخلي؛ كي يدفعني إلى الانتحار، ووضع حد لحياتي بيدي، عوض أن يقتلني بنفسه؟ انتابتني قشعريرة تنتاب -عادة- من يكتشف فجأة فكرة كانت في متناول يده، من دون أن ينتبه إليها، ومر في خاطري تصور مرعب، يرى في العرباوية مدرسة إجرام، تدفع خصومها إلى إنهاء حياتهم بأيديهم، بعد أن تتسرب إلى دواخلهم، وتخضعهم لسطوتها، وتجعلهم دمى بين أيديها الخفية، تحركهم كما تشاء إلى حيث تشاء، وتتلاعب بأفكارهم وعواطفهم، وتجردهم من الرغبة في الدفاع عن أنفسهم، والقدرة على إنقاذ ذواتهم من ذواتهم.

ظننت بأنني توصلت -أخيرًا- إلى كشف ماهية العرباوية، وأن واجبي يلزمني إبلاغ القيادة بما توصلت إليه. جلست إلى الطاولة، كتبت بسرعة وانفعال نصًا يفضح ما في جعبة العرباويين من أحابيل وألاعيب، كان نصًا قويًا، صيغ بعبارات واضحة ومعبرة، أشعرتني بأنني تخففت من عبء ثقيل كان يجثم على صدري، وقطعت شوطًا واسعًا في فضح خلفيات العرباويين وأساليبهم وغاياتهم، ونجحت في تجاوز العراقيل التي وضعتها تجلياتهم المختلفة في طريقي. قرأت النص للمرة الأخيرة، وضعته في مغلف رسمي سجلت عليه اسم السيد رئيس الفرع، ثم أغلقته وكتبت عليه: سري جدًا، يفتح بالذات، دسست المغلف في درج أقفلته بالمفتاح، وخرجت إلى حيث تقودني خطاي.

كنت وسط المنحدر إلى «الدير»، لحظة انتبهت إلى أن الرسالة قد تكون واحدة من الألاعيب الكثيرة والخفية للعرباوية، وأنها ترمي إلى أظهاري بمظهر رجل ضعيف، مزعزع الإرادة والرأي، عاجز عن القيام بمهمته، فقفلت عائدًا إلى الفرع، قصدت غرفتي وطاولتي ودرجي ورسالتي، حدقت في أسطرها غير مصدق أنني أنا الذي كتبتها، بل إنني كدت أنكر أن يكون خطها خطي. جلست على الكرسي وراء الطاولة، أسندت مرفقي إلى سطحها الزجاجي الصقيل، ووضعت رأسي بين يدي، وشرعت أمرر أصابعي من خلال شعري، وأنا أقول بهدوء وضراعة: توقف عن العبث، توقف عن أي شيء، فأنت توغل في طريق لا رجعة منها، أوصلتك إلى كتابة إعلان جنونك، انتبه إلى ما أنت فيه، فقد أصبحت العرباوية في داخلك، صارت من صنع خيالك، وحاجة من حاجات توازنك ووجودك، انتبه إلى نفسك، وإلا تحولت عرباويتك إلى سكين تحز عنقك. مزقت تقريري الذي رأيت فيه قبل دقائق قليلة إنجازًا أمنيًا استثنائيًا، وألقيت بمزقه في أسفل سلة المهملات.

خرجت الى الحديقة، وطفقت أراقب بلدة طلبوا إليّ التحقيق في أوضاعها الاجتماعية، فلم أفلح في التعرف إلى أحد منها، أو رؤية أحد من ساكنيها. لم يطل وقوفي هذه المرة، بل عدت إلى مرآب الفرع المحلي، طالبًا أن ترافقني دورية منه. كنت عازمًا هذه المرة على الشروع في تحقيقاتي، من دون إبطاء، ناسبًا إلى ترددي ما أصابني، نافيًا أن يكون للعرباوية التأثير الذي عزوته إليها قبل هنيهة.

انطلقت سيارتي في اتجاه البلدة، تحيط بها سيارات تحمل عناصر مسلحة ببنادق ومسدسات، كانت «الدير» ما تزال غارقة في نومها النهاري، خالية كعادتها من المارة، قفراء موحشة، يضج في أركانها عواء كلابها الشاردة. تأملتها في البداية بعينين حانقتين، يفيض منهما لؤم باد، تجلى في السرعة التي كانت السيارات تخترف بها أزقتها الضيقة، والطريقة التي أمرت بها العساكر أن يستعدوا لما أسميته اقتحام موطن العرباوية، والأفكار التي راودتني، ودارت حول سحق «الدير» وتصفية العرباوية.

أيقظني صوت سائقي من شرودي، كان قد أوقف السيارة عند آخر البلدة من جهة الصحراء؛ ليسألني عن وجهتنا، جفلت في البداية من سؤاله المباغت، وحين فهمت قصده انطلق من حنجرتي صوت كالفحيح: إلى «مزار الدب». كرر سؤاله، فنهرته بفظاظة: إلى حارة الجورة. كم مرة يجب أن أكرر لك الاسم قبل أن تفهمه؟ انطلقت السيارات كموجة حشرات زاحفة، تثير وراءها عمودًا من غبار سرابي أحمر، تصل فروعه المتشعبة «الدير» بأعالي الفضاء.

توقف الموكب أمام بيت خفيض السقف متداعي الجدران، يحيط به سور من طين تهدم معظمه، فبانت حوافيه كأسنان نخرها السوس، اسودت وامحت معالمها. ترجل العناصر من السيارات، أحاطوا المنزل، ويد كل منهم على سلاحه، وحين استكملوا انتشارهم، اقترب أحدهم من الباب الخارجي، دق عليه بقبضته مرات عدة، من دون أن يتلقى جوابًا. نظر إلي، فأومأت برأسي، فرفس الباب بقوة أطاحته، ثم اندفع

إلى داخل البيت صارخًا: سلموا أنفسكم، ولا تأتوا بمقاومة. اقتحم المداهمون البيت في إثر الرجل الأول، يفتشون ويبحثون. إلى أن وجدوا كومة من جلد وعظام متكورة على نفسها في إحدى الزوايا، تتصاعد منها روائح العفن والموت، وقد اتكأت على عصا طويلة وغليظة، بدت أصابعها، وكأنها جزء منها. نظرت إلى المشهد، حرت -أول وهلة- فيه، تساءلت عما إن كان أحدهم قد سرب إليها نبأ المداهمة، فاستعدت للقائي بهذه الوضعية الغريبة التي جعلتها تستند إلى عصاها، وهي جالسة.

اقتربت منها سائلًا عن زوجها وأولادها، لم تجب، ولم أفهم بعد قليلٍ ما أخرجته من جوفها من همهمات غامضة، كررت سؤالي، فكررت همهماتها المبهمة. أمرت عندئذ بنقلها إلى الفرع؛ لاستكمال التحقيق معها. أثارت عبارة استكمال التحقيق ابتسامة ساخرة، ارتسمت على شفاه العناصر، تحولت إلى ضحك، ونحن في طريق العودة. حملوا حطام المرأة إلى السيارة، محاولين إبقاء أعضائها متصل بعضها ببعض، وحين أنزلوها من السيارة أمام الفرع، تجددت خشيتهم من انفراط عقد جثتها التي كانت تتكوم وحيدة في زاوية بيت متداع، نسيه الزمن داخل بلدة مرمية في قفر صحراوي مهلك، منسي في ركن قصي من عالم مفكك الأوصال، اسمه وطن.

وضع أحد العناصر القيود في أيدي العجوز، والعصبة الجلدية على عينيها، قبل أن يدفعها إلى زاوية زنزانة منفردة، تقع في قبو الفرع، حيث تكومت من جديد ويداها متدليتان إلى الأرض، بعد أن انتزعوا العصا منها.

لم أغب عنها، دفعتني رغبتي في كشف غوامضها إلى بدء تحقيقاتي معها، في عقب مداولة قصيرة أجريتها مع ضابط، كان رئيس الفرع قد كلفه باستقصاء أحوال آل الجسري، فلم يجد شيئًا، سوى عنوان البيت الذي يفترض أن عرباويًا ولد فيه قبل ثلاثين سنة. كنت قد أبديت استيائي من قلة المعلومات المقدمة إلي، والوقت الذي أضعته من دون جدوى. لكنني أحسست الآن بأن لدي مصدر معلومات، عليّ اعتصاره قبل أن تتاح له الفرصة لترتيب أفكاره، وزاد من تعجلي أن العجوز كانت تقف على حافة الموت، وأنها قد تغادر عالمنا بين لحظة وأخرى.

بدت المرأة في بيتها آتية من ماض لا سبيل للنفاذ إليه، كان يجب أن يزول منذ أمد طويل، لكنه قاوم وتشبث بالزمن، وأفلح في البقاء. حدقت فيها، رأيتها في ضوء أفكاري عنها قيمة رمزية تتجاوز شخصها، بل إنني رأيت فيها للحظة« الدير» ذاتها، وفي تحقيقي معها استنطاقًا لبلدة أساءت استقبالي، ونبذتني وتكورت على نفسها؛ لتبقيني خارج عالمها، ورأيت في التحقيق معها تصفية حساب مع واقع لا أدري لمَ بقي قائمًا، على الرغم من انتفاء مسوغات وجوده جميعها.

كان الممر المفضي إلى القبو ينتهي إلى سلم ينحدر نحو جوفه، دائرًا على نفسه، في حركة لولبية تقود إلى باب حديدي يفتح عن بعد بأجهزة تحكم حديثة. فُتح الباب الكهربائي، فإذا بي حيال نفق طويل، تتناثر على جانبيه كوى صغيرة، وراء كل واحدة منها زنزانة انفراديه.

وقفت في بداية الممر أتفقد عشرات الكوى بعيني المدربتين، يزاولني إحساس بالرضى وشعور بالقوة؛ لأنها كانت جميعها مغلقة. قلت في نفسي: إذا كانت «الدير» بحاجة إلى سجن كهذا، فإلى أي عدد من السجون تحتاج العاصمة بملايينها الكثيرة؟ وإذا كانت هذه الخرابة الغائبة عن الدنيا قد أنجبت هذا العدد الكبير من المتآمرين، فما عدد من أنجبتهم حاضرة البلاد العامرة؟

كان أحد العساكر يروح ويجيء في أول الممر. سألته عن زنزانة المرأة، فأجابني: لدينا خمس عشرة امرأة، سيدي، أيهن احضر لك؟ كنت أوشك أن أنفجر غضبًا، حين تقدم مدير السجن طالبًا إليّ التفضل بالسير وراءه. تقدمت في النفق الطويل بين أذرع الحراس التي تحييني، تعالى فجأة بكاء طفل من إحدى الزنزانات، تقدم أحد الحراس إلى الكوة شاتماً الطفل الباكي وأمه العاهرة التي لم تجد مكانًا تلده فيه إلا هنا. التفت الحارس إلي وقال في تملق متفاخر: هذه رهينة، سيدي، اعتقلت قبل سبعة أشهر؛ لإجبار زوجها السياسي، أحمد العابد، على تسليم نفسه. قاطعته سائلًا: من زوجها؟ انتبه الى غلطته، فقال بصوت مرتفع: المجرم السياسي الفار أحمد العابد، سيدي العقيد.

تقدمني مدير السجن إلى الزنزانة المنشودة، كانت رائحة العفن قوية نفاذة، تنبعث من زنازين كأنها ملئت بالقمامة، وأحكم إغلاقها، بعد بدء الخليقة بقليل. كان ذهني ينتقل بين البلدة التي تشبه المقبرة، والسجن الذي يشبه المزبلة، نظرت ورائي، ينتابني الإحساس بأن

البلدة اندمجت في السجن، أو دخلت إليه، وأن الباب الكهربائي الذي يفصل بينهما سقط تحت أقدام سكانها ومسجوني الفرع. كم أحسست بالراحة عندما التفت إلى الخلف؛ لأجد الباب منتصبًا في مكانه، فاصلًا من وراءه، و«دير الجسور» قبل كل شيء، عن الدنيا!

فتح باب الزنزانة، فلاح جسد العجوز هزيلًا ومتهاويا، كتمثال ترابي داس أحد ما على رأسه، وقد انزلت القيود يديها إلى الأرض، وحجبت العصبة عينيها. دخلت إلى الغرفة، وقفت قربها أحدق فيها، كأنني لم أكن أتوقع وجودها هنا، توهمت أنها تتصنع تجاهلي، لكزتها بقدمي آمر إياها بالنهوض، رفعت رأسها نحوي بحركة تنم على عدم الفهم ونفاذ الصبر، فبدت هالة من التحدي على ذقنها المدببة. خلت أنها تتحداني حقًا، بل إنني رأيت نظرة تستهين بي، تنطلق من عينيها مخترقة عتمة العصبة؛ لتنفذ عبر ضلوعي. صرخت بصوت يخنقه الغيظ: انهضي على قدميك واتبعيني. التفت إلى مدير السجن طالبًا إليه اللحاق بي، قبل أن أتقدمه بخطا سريعة تشبه هرولة مذعورة. كنت أسير كمن يهرب من المكان، أتلفت بين حين وآخر إلى الخلف قائسًا المسافة التي تفصلني عمن يطاردونني، قطعت النفق الطويل الذي ذكرني بالزقاق الذي كنت قد اجتزته في سيارة الخبيث، ثم عبرت الباب الكهربائي صاعدًا الدرج المتعرج، وإن هي إلا هنيهات، حتى كنت أقفز كل درجتين معًا، إلى أن وصلت غرفتي، التي كان الحاجب يقف أمام بابها في انتظاري. دخلتها وجلست على كرسي، ما لبثت أن نهضت عنه قاصدًا مكتبي، حيث جلست، ويداي على الطاولة كيدي موظف عادي، ينتظر مراجعين عاديين.

أدخل الحراس الجسد المتصدع، وهم يجرونه جرًا. شحطوه إلى أمام الطاولة، ورموه إلى جوار قائمها الأيمن. أشرت بيدي إلى رقعة من أرض الغرفة، فاقتاد أحدهم العجوز إليها، وهو يضغط على كتفيها، ويقول آمرًا: اجلسي هنا، أيتها العاهرة.

نهضت من وراء طاولتي، سحبت كرسيًا، وضعته قرب العجوز، وجلست عليه باسترخاء متأملًا منظرها. كانت في الثمانين من عمرها، ناحلة كعرق حور جاف، متغضنة الوجه مكرنشة الجلد، سقطت أسنانها، وغارت عيناها، وتقوست ذراعاها، وبرزت عروق رقبتها من عنقها، وابيضّ شعرها، أو ما تبقى منه، بينما غطاها لون رمادي، بدت معه كمن تزين في انتظار ملك الموت، بعد أن فارقته حياته منذ وقت طويل، فذوى ويبس كنبته فقدت جذورها، ولم تعد تجد ما يصلها بمقومات العيش. حيرني منظرها الذي لم يسبق لي أن واجت ما يشبهه، تساءلت إن كان يحسن بي مراعاة وقوفها قرب هاوية الموت، وطرح أسئلتي عنها دفعة واحدة، أم تقسيمها إلى أجزاء صغيرة تجيب عنها جزءًا بعد آخر، إن فهمتها، أم أطرحها عليها بين ضربات الكرابيج ولسعات الأجهزة الكهربائية؟ كانت المرأة متكومة على الأرض، محنية الرأس، مهدودة القوى، وكنت أجلس على الكرسي، وقد فقدت سمات الموظف العادي، وغطيت وجهي بقناع التحقيقات الذي لا يجوز، أو يحق لأحد أن يعرف ما يخفي وراءه.

لاحظت أنها ما تزال تحمل قيودها بيديها، وأن العصبة السوداء تغطي عينيها، وقسمًا كبيرا من جبينها وأنفها. أردت أن أرى ما تحتها،

فمددت يدي لأنتزعها، وأنا اقول: إذا كانت بصيرة، فإنها لن تحتاج إلى عينيها لترى بهما، وإذا كانت عمياء، فإنها لن تحتاجهما أيضًا، وفي الحالتين لا لزوم للعصبة الجلدية. داخلني إحساس بالتعاطف معها، أفقدني شيئًا من عدائي حيالها؛ لذلك تساءلت: ما عساها تستطيع أن تفعل، وهي في مثل هذا العمر، وهذه الحال؟ وحين تذكرت من تكون، أزاح العداء التعاطف، وبدأ الغل يتصاعد في صدري، والفحيح يتعالى من حنجرتي، وأنا ألعن الدهشة التي جعلتني أشبهها عندما رأيتها في بيتها بإحدى عماتي أو خالاتي؟ وأنها خليقة بأن تكون أمي، لو ولدت وعاشت في «المزار»؟ قربت وجهي منها كمن يريد التأكد من هويتها، وكدت أمد يدي إليها؛ لأتحسسها، وأقطع شكوكي بيقين حضورها. بيد أنني أقلعت عما عزمت عليه، ونهضت إلى الطاولة؛ لأعود من جديد، وفي يدي ملف أصفر اللون، كتب عليه بخط جميل: عرباوي الجسري. جلست على الكرسي، والحراس ينظرون إليّ مترقبين، فتحت الملف، قرأت أمر المهمة الصادر بشأن التحقيقات عن «الحالة العرباوية الداهمة التي لا يجوز أن تقتصر على كشف أسباب ظهور التحدي وبيئته الاجتماعية وخلفياته الواقعية، إنما يجب أن تظهر -أيضًا- مساراته المحتملة، ومجرياته الخفية».

نظرت إلى المرأة، وأنا أرى فيها واحدًا من مجريات العرباوية الخفية. أليست هي التي حملت بعربي وأنجبته، وأطلقته في مسار قاده إلى تهديد الأمن والنظام، وشكل حالًا من الخطر على حياتنا العامة، فاقت كل ما عداها وسبقها؟ لقد ألقت هذه الأفعى الماكرة بجرثومة العرباوية إلى الدنيا، ثم جلست تستريح مصطنعة البراءة، كأنها تريد،

أو تستطيع، إيهامنا بأنها تجهل ما جنته يداها، وأن لا علاقة لها به وبنتائجه. كززت على أسناني، وأنا آمرها بالبوح بها في نفسها، وأحدثها عن الأفواج التي مرت تحت سوطي، وكيف وجد بينها من اصطنعوا البراءة مثلها، وأتوا بقرائن وبينات، تؤكد ولاءهم للفرع، ثم كيف كانوا يلحسون أقوالهم في النهاية، فيعترفون بالتهم الموجهة إليهم، ويضيفون إليها تهمًا إضافية، تكشف أعمالًا لم يكن الأمن يعلم أنهم قاموا بها، على الرغم من أن بعضها كان كافيًا للإطاحة برؤوسهم. كنت أمام هذه الحالات أقول متفاخرًا: لولا شدتنا التي تأخذ البريء بجريرة المذنب، لانهارت التحقيقات، وضاعت الحقائق، والتبست الأمور، ولصعب التفريق بين الضعف والتراخي، وبين القوة العادلة والبطش الظالم.

أعدت العصبة إلى العينين الغائرتين، أمرت بشد القيود من جديد على يديها، وهما وراء ظهرها، ثم طلبت إلى الجلادين نزع ثيابها عن أجزاء من جسدها. عندما انتهوا، سألتها إن كانت تريد أن تعترف بمحض اختيارها، وعندما رفضت الإجابة، بدأت التحقيق.

ارتفعت أيدي أربعة رجال في وقت واحد، وانهالت بما تمسك به من سياط عليها، في حركات متسقة كحركات الموسيقيين، بينما كانوا يصوبون ركلاتهم الى مؤخرتها وحوضها. استمر الضرب والركل، بيد أنها لم تصرخ أو تتأوه. ذلك كان تحد استهدف هيبتي محققًا، قررت الرد عليه بكل ما يتطلبه كسر إرادتها من حزم.

نهضت عن الكرسي، واتجهت نحوها، وفي يدي أنبوب حديدي، ينتهي إلى كتلة مطاطية مكورة، بدأت أسددها إلى رأسها، ولأنها لم تبد أي رد فعل يشي بتفاعلها مع الألم، أخذت حركة يدي تتواتر بسرعة متزايدة، وتعالى صوتي بدوره، من دون جدوى أو نتيجة، فقد فشلت محاولاتي في إنطاقها. لم أستغرب موقفها، أول وهلة، أليست أم عربي الجسري؟ ومع ذلك، فقد أدهشتني قدرتها على تحمل ما تتعرض إليه، وهي التي في هذه السن المتقدمة، أبان مظهرها أن الحياة صدعتها إلى درجة تجعل انهيارها حتميًا أمام هبة ريح، فضلًا على تحقيق أمني مدروس ومنظم. كان حنقي عليها يزداد، وينعكس في تنفسي، ولون وجهي، وحجم حبات العرق المتساقطة من جبيني على ثيابي وعليها، وعلى أرض الغرفة.

مرت ساعات، وأنا عاجز عن انتزاع كلمة واحدة منها، بينما أخذ عناصر التعذيب يتراخون في مواجهتها. صار من الواضح أن فشلي في سحق هذه الأفعى المتكورة على ذاتها سيفقدني ما بقي لي من رصيد لدى القيادة، صرخت عندئذ: سأذبحك أيتها الأفعى الخرساء. أنت لا تعرفين من أكون، أنا من لم يصمد في وجه وسائله أحد من قبل، وانهار تحت حذائه أعتى الرجال، وأكثرهم شدة وبأسًا. كانت حركة يدي تتعالى وتنخفض فوق الجسد الهرم، وتهتز كأجنحة نحلة. وكنت أعذبها وأصرخ صراخ من يتعذب بدوره، ولولا وجود عناصر الفرع بقربي، لربما جثوت على ركبتي أمامها، أرجوها أن تعترف وتنقذني من ورطتي، وأن تريح نفسها وتريحني.

ـ عاد من المدرسة إلى المنزل، كانت أمه تبكي بصمت تحت شجرة التوت الكبيرة أمام بيتهم. اقترب منها يضمها إلى صدره مواسيًا، أبعدته لاعنة سبط العبد الأسود، ففهم أن أباه ضربها مرة أخرى. تركها وانطلق يفتش عنه، يريد أن يقول له ما لم يجرؤ على قوله من قبل، ويعلمه أنه لن يسكت بعد ذلك على ضربها. فتش في الحقول المحيطة بالمنزل، في الطريق إلى النبع، على البيادر، لكنه لم يعثر له على أثر، فرجع إليها، كانت متكومة قرب الخابية الكبيرة في عمق البيت، يعلو صدرها ويهبط وهي تنتحب، تعالى صوتها حين رأته، فشعر بألم يتصاعد داخل جوفه، ويقف في حلقه، مشعلًا حريقه في صدره، اقترب منها، ركع قربها ومال إليها يضمها إلى صدره، وهو يمشط شعر صدغيها بأصابعه التي كانت تمتد برفق عنقها المحني تحت وطأة الألم والمهانة، انطلق صوته رقيقًا من حنجرته المخنوقة التي أحس بأن دموعه تنساب عبرها إلى قلبه، ناجاها وداعبها ووعدها بقرب الخلاص، ثم أخذ يقبل جبينها فعينيها فأنفها فذقنها فيديها، تاركًا يده الأخرى تمر بحنان على ظهرها المحدودب الذي بدا له هشًا يكاد ينقصم. لم تجد كلماته في إسكاتها، بل زادت آلامها، وقف عندئذ حائرًا قربها، ثم اندفع راكضًا في اتجاه الغابة.

لم يطل بحثه هذه المرة، كان أبوه جالسًا فوق إحدى الصخور الكبيرة، وظهره إلى القرية، جمده المنظر في مكانه، وشله الخوف مما قرر أن يقدم عليه، تردد قليلًا، وفكر بالعودة من دون أن يشعره بوجوده، وأحس بما يشبه وخز ضمير، عندما تذكر أن هذا الرجل هو في النهاية أبوه، وهو أقوى منه بكثير، فماذا عليه أن يفعل؟ لم يطل تردده، فقد

وجد نفسه مدفوعًا بقوة خفية نحو الصخرة. أحس الأب بحركته وراءه، التفت يسأله بلهجة عدائية: ماذا جئت تفعل هنا؟ أجاب بصوت بدا أعلى مما أراد له أن يكون: جئت أسألك ألا تضرب أمي مرة أخرى.

- وماذا ستفعل إن ضربتها؟ سأله أبوه ساخرًا.

- لن أسكت.

نهض الأب عن الصخرة واتجه إليه، حركه الخوف الآن من مكانه الذي كان قد جمده فيه، فلم يفر كعادته. اعتقد الأب أنه يتحداه، فاندفع نحوه تسبقه قبضته الضخمة التي تريد الإمساك به، كانت توشك الوصول الى عنقه، عندما انحنى فجأة والتقط حجرًا ضربه بها على وجهه، انبجس الدم من وجه الأب كنافورة صغيرة بللت ثيابه، وحولته بعد قليل إلى كتلة حمراء. وقف الأب في حال من الذهول، كمن لا يصدق ما جرى، بينما كان كل واحد منهما ينظر إلى نفسه تارة، وإلى الآخر تارة أخرى، لا يصدق أن ما وقع قد وقع، وينتابهما كلاهما شعور بأن هذا الحجر هو نقطة الافتراق الكبرى في حياتهما وعلاقتهما.

لم يعد يتذكر متى، وكيف، أطلق ساقيه للريح، وكم عدد الحجارة التي أصابته، ولم ينس -بعد- خوفه من الذهاب إلى البيت، ولجوءه إلى منزل الشيخ «حمدان الأبرص»، حيث بقي مدة طويلة، تكفل بتربيته خلالها.

حشدت آخر ما بقي لي من قوة، وقمت بانقضاض جديد على الجسد الممدد تحت قدمي، كانت العجوز صامتة لا تبدي رد فعل، أما أنا فكنت أسمع صوت بكاء أمي المنكفئة على نفسها قرب الخابية. هجمت على الجثة؛ مدفوعًا برغبتي في التخلص من صوت أمي، فإذا ببكائها يتحول إلى نشيج، فنحيب، فعويل، فصراخ هستيري، شعرت بأنه يدق على صدري، ويحطم جمجمتي. كنت أضرب العجوز وأتألم، وكان ألمي يتعاظم بقدر ما أمعن في ضربها، فأضربها علّ صوتها يتعالى، فأقلع عن سماع صوت أمي الباكية. لم أتوقف عن الضرب، على الرغم من قناعتي بأنني ما عدت أضرب المرأة الغريبة. قادني اختلاط صوتي بصوت أمي وأصوات جلادي الفرع وعناصره إلى فقدان السيطرة على سلوكي، فإذا بي أرى صورة الأم الباكية مختلطة بصورة أم عرباوي بصور النساء اللواتي مررن تحت سوطي، هاجمتني مشاعر جنونية، جعلتني أطلق كلامًا أوقف مساعدي عن تعذيب العجوز واحدًا بعد آخر، كنت أصرخ بصوت كالعواء: كم كان أبي على حق في تعذيبك وسحق عظامك أيتها الحية! وكم كنت مخطئًا عندما دافعت عنك، وتشردت من أجلك. لقد حميتك، وها أنت تكسرين إرادتي، وتحطمين هيبتي، الموت لك أيتها الداعرة، الموت لك. ألقيت بالعصا من يدي، وانقضضت على عنقها الناحل أضغط عليه بكل ما في قلبي من حقد، كان صوتي هو الذي يتحشرج الآن، وتنفسي هو الذي يتعالى كالشخير، وقد أخذت أسبح في بحر من عرق تصبب من سائر مسامات جسدي، وأنا ألقي بجثتي فوق المرأة الصامتة العنيدة لأجهز عليها. لم تأت العجوز بأي حركة، فاندفعت نحو جهاز كهربائي ربطتها به، آمرًا

أحد العناصر بإعطائي سيكارة مشتعلة، أطفأتها في جسدها. كنت أنتقل من فقدان الوعي إلى حال أشبه بالجنون، وأصرخ بكل ما في نفسي من عنف: هذا ليس كل شيء بعد، هذا أول طريق آلامك، أيتها الجاهلة بمن أنجب بطنك الدنس.

استمرت العجوز في صمتها، واستمريت في تعذيبها، إلى أن جاء ضابط الفرع أخيرًا، ألقى نظرة على المرأة وقال: ربما كنت تعذب جثة ميتة، سيدي العقيد. أرجو أن تسمح لطبيب الفرع بالكشف عليها. أوقفت التحقيق إلى أن جاء الطبيب، اقترب منها وأمسك بمعصمها، وهو ينظر إلى الجسد الممدد فوق الأرض، رفع بعد ذلك جفنها عن إحدى عينيها، ثم التفت إليّ قائلًا: إنها ميتة منذ وقت طويل، بعد الضربات الأولى على الأرجح.

تطلعت إليها. بدا لي أن التحدي ما زال ينبعث من وجهها، وأنها كانت توشك قول شيء، لكنها غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة، فلم تفصح عنه. مد الطبيب يده يعيد العصبة إلى عينيها، وهو يؤكد بصوت مفعم بالذهول: كانت عمياء منذ مدة لا يعلمها إلا الله.

صعقت، أحسست أنها هزمتني، وأنني خسرت معركتي مع العرباوية التي خدعتني، وتلاعبت بي، وازدادت غموضًا واستتارًا بدلًا من أن أكشف كنهها. ألقيت يائسًا ما كان في يدي من أدوات تعذيب، وخرجت حانقًا لا ألوي على شيء نحو الحديقة. حين عدت من جديد إلى غرفتي، نظرت من نوافذ الفرع المطلة على «الدير»، فبان لي مجددًا ما شاهدته مرارًا وتكرارًا، عالمها الخرافي، المموه، والغائم

والقصي. لم أمعن النظر فيها طويلًا كعادتي، بل اندفعت إلى الممر الطويل، يتبعني حاجبي وسائقي في خطا مهرولة.

كنت أسير مدفوعًا بقوة داخلية عمياء، تطوح بي نحو هدف لا أعرفه، قانعًا بأن حياتي قد بلغت نهاية نفق مغلق، لا مخرج لي منه، وأنني أوغل في مأزق سيعيدني إلى ما كنت عليه قبل دخولي إلى الفرع والجيش، لن تكفي ثروتي، وما بقي من قوتي لتخليصي منه، وأن ما بذلته من جهد؛ لتحاشي وصولي إلى القاع، لم يكن كافيًا؛ بسبب ما انتابني من اضطراب وخوف، افتقرت معهما إلى الأفكار الصحيحة والمحاكمة الصائبة، بينما أمسكت بتلابيبي وقائع مزارية، كنت أسخر إلى الأمس القريب من الذين يولونها أي أهمية. كنت أسير الآن بسرعة، وأنا أهمس بصوت حزين: ليتني بقيت طفلًا. وليتني أغيب عن الوعي؛ كي لا أعرف ما ينتظرني في فرع العاصمة، أو أن أغمض عيني لأفيق من جديد بعد انقضاء أجلي، فأنال سعادة من بارح حياة نقلته من البؤس والحرمان إلى الخوف والغربة والقلق، ومن الضعف العاري إلى حال من القوة دمرت الآخرين، وها هي تدمرني.

أرعبني الوضع الذي انحدرت إليه، منذ أن عدت من «المزار لأجد نفسي لا أنام ولا أصحو، أتحدث مع نفسي، وكأنّ مس جنون أصابني، أحاور كائنًا خرافيًا يستوطنني، أسميته «آخري»، لا يطرح عليّ من الأسئلة غير تلك التي تعذبني، كأنه لا يسمع ما أقوله له، أو أخبره به من وقائع تشفع لي، من شأنها آن تقنعه، لو كان منصفًا، بأنني عشت حقًا حياة قاسية، ولا أرغب في الغرق مجددًا في بؤس روحي،

أنا ميدانه الوحيد، يتفنن في تعذيبي، ويوغل في داخلي إيغال سفينة أضاعت دفتها في بحر هائج، يبتلع كل من فيه. أمس لم أكن أسأل عن قدرتي على ممارسة القسوة تجاه الآخرين؛ لأنها كانت سبيلي إلى التقدم في الفرع وخارجه؛ ولأنني كنت أجبر غيري على دفع الثمن الذي حددته لها. أما اليوم فإنني أطرح الأسئلة حول قسوة لا أعرف مصدرها، تمارسها علي أوضاع عامة أعي أخطارها، وأقف مكتوف اليدين، عاجزًا عن مواجهتها أو تحاشيها، ليس لأنني أفتقر إلى الرغبة في ذلك، بل لافتقاري إلى القوة والقدرة، ولأن غيري غافل عنها، وعازف عن رؤية ما تنتجه «الدير» من تحد، لن ننجح في تخطيه بما لدينا من وسائل وأفكار، والتغلب عليه بقدرات الفرع وحده، ليس لأنه لا يعمل، وإنما لأن الآتي يتخلق بصمت، ويعتمد مسارات خفية ومتشابكة، تفضي إلى العرباوية، الخطر الذي لن يكون في استطاعتنا تجاوزه، إذا لم نخرج من متاهة «المزار»، ونتخلى عن إرث «حمدان الابرص»، ونعالج ما جرى فيه، وأدى إلى ظاهرة العرباوية و»الدير»، وما لا بد من أن يتخلق منهما في مقبلات الأيام، من مخاطر تتربص بالفرع وبي، أراها مقبلة، وأعتقد أن تجاهلها أعظم الأخطاء التي يمكننا اقترافها، قبل زوال زماننا. كم دعوت إلى متابعة ما يجري في اجتماعاتنا الرسمية داخل الفرع، وأثارت دعوتي إلى المتابعة اللعينة الشكوك حولي، وعلمني الامتناع عن المتابعة أن أطرح أسئلة على نفسي، انتهت سريتها بي إلى حياتين: واحدة كبيرة وعلنية للفرع، تقلصت منذ حوادث المزار وظهور العرباوية، وأخرى صغيرة وسرية، ظلت لي وحدي، لكنها ما انفكت تتسع، وتقوض الحياة الأخرى، رغمًا عني.

شرعت أطوف حول تلة الفرع، متذكرًا بدايتي الأولى في الأمن. كنت قد أقنعت نفسي بأن الجيش هو روح دولتنا، والفرع هو روح الجيش، وجاهرت بآرائي التي كنت أنشرها حيثما توجهت، وتتلخص في مقولة لم أحد عنها في أي حال، ترى أن الفرع علة استمرارنا. وكم قلت إن على البشر أن يكونوا في خدمة الأمن، وعلينا جميعًا أن نكون في خدمته بأقصى حد من الإخلاص والولاء. عندما دعيت، أخيرًا، إلى الفرع، كنت متشبعًا منذ وقت طويل بروحه، قانعًا بأن صلاحياته لا بد من أن تغطي أوجه مجتمعنا وحياتنا جميعها، بما فيها الشؤون الفردية أو الشخصية الحميمية لأي مواطن من مواطنينا. وحين بلغني -أول مرة- أن هاتفي وُضع تحت الرقابة، شعرت بنعمة الرضا والراحة النفسية، وعشت أيامًا لم يسبق لي أن عشت ما يماثلها سعادة وسرورًا؛ لأن ذلك الإجراء كان في نظري دليل على حسن سير الأمور الذي لا يجوز أن يعوقه شيء، أو يحول دونه أي حساب، وعلى أن الهيئة البشرية في بلادنا تغذ السير نحو درجة رفيعة من النضج، ستتخلى، في نهايتها الوشيكة، حتى عن ذاتها للأمن، وسترى في حقوقه واجبات مقدسة، عليها التقيد بها، في الأوضاع والأحوال سائرها. بهذه الروحية، أخذت أعمل ليل نهار، من دون أن أطرح أي سؤال، أو أسمح لأي شك بالدنو من عقلي. كنت أرى في المخلوقات المطلوبة أمنيًا كائنات لا تنتمي إلى النوع الإنساني، وأعد اعتقالها وتعذيبها خدمة واجبة للبشر، بل إنني كنت أبرر القتل ذاته، وأقر، في الوقت نفسه، بأنه قد يبدو قاسيًا وفظيعًا في ظاهره، لكنه ليس في ما يتخطى ظاهره غير شكل سام من أشكال الرحمة بالإنسان، ينفذه رجال بلغوا من العظمة حدًا قبلوا معه التضحية بسمعتهم، وتحمل

آلام شخصية لا تطاق، من أجل تحقيق غايات مثلى يتفانون في خدمتها، أهمها حفظ النوع الإنساني بحفظ الأمن، وإدامة دور الفرع. كان رجل الأمن بالنسبة إلي يد الإنسانية الخيرة، وبشير عصر نظيف سيأتي بالحرية، والحمامة التي تبحث عن أرض للأخلاق، لم تغمرها المفاسد والخطايا بعد. لكن تغيرًا أصابني، عندما اكتشفت موت ابن أخي في الفرع. كنت أعرف التهمة ومسار تشكلها، وأعرف أيضًا من لفقها وأوصلها إلى آذان الأمن. أعترف صريحًا بأنني أنا الذي فعلت ذلك، وأنا الذي قلبتها على وجوهها الأمنية المختلفة، فوجدتها تافهة لا تستحق تدخلي، وأيقنت أن الفرع سيكتشف بدوره تفاهتها، وسيحسب حسابًا لقرابتنا. أذكر أن المحقق سألني عما فعله الفتى، وأنني طلبت إليه تأديبه قليلًا، وتهديده وإخلاء سبيله. بعد أيام، علمت أن ذلك لم يحدث، وأنهم انقضوا على الفتى الصغير لانتزاع اعترافات أخرى منه، وعذبوه إلى أن انهار ومات، بذلك انتهى ابن أخي في ساعات قليلة، تحول خلالها من معترض على انتزاع أرض أبيه إلى متآمر خطِر، فهل كان بوسعي، أنا المحقق البارع، المتمسك بنظريتي حول دور الفرع في انصرام تاريخ البشر الوحشي، وإخضاع حياة الإنسان وحقه في الحياة لموقفه السياسي، ألا أشك في الفرع وما يحدث فيه؟ تذكرت لحظتئذ ما جرى لي حين مررت في «المزار». كنت قد تناسيت ابن أخي ومصيره، عندما ذكرني الشيخ واصل بابنه، غمغمت بضع كلمات غير مفهومة، ثم أبلغته خلوص التحقيقات إلى براءته من التهم الموجهة إليه، وختمت مؤكدًا أنه في أيد أمينة، وأنهم سيطلقون سراحه قريبًا، بسبب تدخلاتي الشخصية المتكررة.

بعد عودتي إلى العاصمة، سألت أحد المحققين عن الشاب الصغير، فأجابني باللغة الرمزية التي أعرف معانيها: سافر في إجازة. ارتجفت ركبتاي لهول المفاجأة، لم يكن سبب ذهولي خوفي من إخوتي، فهؤلاء كانوا قد تحولوا منذ زمن غير قصير إلى عمال زراعيين في أرضي يعيشون مما أجود به عليهم. كان السبب خوفي من اهتزاز إيماني بالفرع إلى الحد الذي يضع قدمي على بداية طريق تخرجني من عالم الفرع، وتقودني إلى عالمي الخاص الذي كنت قد نسيته أو تناسيته، ومنه الى عالم «الدير».

ذهبت في اليوم التالي إلى محقق وعدني في حينه بإنهاء المسألة بخير. سألته عما حدث، التفت إليّ مستهجنًا سؤال ضابط أمن بلهجة متعاطفة عن متآمر شرس. قلت، وأنا في موقف لا أحسد عليه: كان الشاب ابن أخي، فعقب بدم بارد: في أسرتكم متآمرون، وفيها من هم أشد خطرًا منهم. سألته: من يكون هؤلاء؟ أجابني: الذين يدافعون عنهم، ويحاولون تبرئة ساحتهم. أيقنت عندئذ أنه سيكتب تقريرًا اتهاميًا ضدي، وأنني بدأت السير على طريق سبقني إليها كثيرون، انتهت بسقوطهم في هاوية الفرع. بعد ساعات، استدعاني رئيسه مستوضحًا الحكاية، فقصصت له ما حدث، فعقب ببرود: لا خوف على من يتقيدون بالأصول. أنت تعلم أنه يجب إعطاء الفرع الأولية على كل ما عداه، وتعرف أن لعلاقاتك به الأولوية على أي علاقة أخرى، ولا سيما إن كانت علاقة أسرية أو شخصية، وتعرف أيضًا ثقتنا بحتمية التزامك بما يفعله الفرع، وتعلم أن أي اهتزاز يصيب اقتناعك بعملك، سيدفعك حتمًا إلى تركنا. حين أنهى حديثه أكدت

التزامي بالمعايير النبيلة التي يمليها عليّ عملي في الفرع، ثم خرجت، وأنا أتساءل عن معنى كلامه، وهل كان يهددني أم يطمئنني؟

ظننت أن العاصفة قد مرت، والموضوع قد طوي، وأن حياتي ستتواصل بالوتيرة السابقة، تحت راية الفرع، وفي سبيل رسالته التي كنت أراها مفعمة بالنبل والرحمة بالإنسان. لكن سعادتي لم تطل، فقد وصلت إلى عملي ذات صباح؛ لأجد نفسي عضوًا في لجنة تحقيق مع فلاحين، بينهم الابن الثاني لأخي الشيخ. درست الأمر، وقلبته على وجوهه المختلفة. إذا كانت قيادة الفرع قد تعمدت وضعي في هذه اللجنة، فلأنها أرادت اختبار جديتي والتزامي. أما إذا كانت التسمية قد حصلت بمحض الصدفة، فمن يضمن لي ألا تتحول عن طابعها هذا؟ كانت هناك شواهد عدة تشير إلى قيام ابن أخي بدور خاص في نشاط معاد، وكان قد مر على محققين كثيرين، عجز جميعهم عن كسر صمته؛ لذلك قررت القيادة إسناد التحقيق إلي، كما قال لي رئيس شعبة التحقيق خلال لقاء قصير جمعني به.

اقتنعت، شيئًا فشيئًا، بأن مهمتي ليست غير فخ، يراد له أن يطبق عليّ بإحكام. وزاد شكوكي أن رئيس فرع التحقيق أخبرني أن قرابتي للمتهم تعد عاملًا حاسمًا في الوصول إلى الحقيقة التي نريدها، وأنهم يعولون عليّ في معرفة نشاط التنظيم الذي ينتمي إليه. قلت لنفسي، وأنا أنزل الدرج الدائري الهابط إلى أقبية الفرع: لن أقع في فخهم، وسأثبت لهم أنني أكثر حنكة وذكاء منهم، وسأنفذ عبر الفرصة التي أعطيت لي موقفي المهدد، وأجعلهم يقلعون، من الآن فصاعدًا، عن

وضعي تحت الاختبار، وإخضاع مواقفي وسلوكي لرقابة، تشي بها حركات العناصر والحراس ورجال التحقيق والجلادين والضباط الذين كانوا يضعون أعمالي في ميزان، اعترافات ابن أخي في إحدى كفتيه، وحياته في الكفة الأخرى.

وصلت إلى القبو، كان الفتى في واحدة من الزنزانات المنفردة المخصصة لقادة التنظيمات المعارضة. ذهبت إليه عبر الردهة الطويلة، محاولًا تركيز أفكاري على ما سأقوله له، منطلقًا من ارتباط مصيرينا، هو المعارض المعادي، وأنا رجل الأمن وخادم النظام. فتح العسكري باب الزنزانة، فبدا وجهه متورمًا، وجسده ممزقًا، في ضوء المصباح الكهربائي الذي تدلى فوق رأسه، ليحول بينه وبين النوم. كان عاجزًا عن الحركة، فلم يستطع الوقوف حين أمره السجان بالنهوض.

لم يفاجأ حين شاهدني، ولم يشح بوجهه عني، وإنما بذل جهدًا كبيرًا ليجلس، منتظرًا ما سأفعله. دخلت الزنزانة، اقتربت منه، مبديًا علامات الاستغراب لوجوده في مثل هذا المكان، وعلى هذه الحال. جلست قربه على البطانية، بعد أن أمرت العسكري بتركنا وحيدين. تفحصت المكان بعينين تملؤهما الدهشة، كأنني لم أره من قبل. سألته بصوت حاولت أن أجعله رقيقًا: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وهل أنت بحاجة إلى أي شيء؟ لم يجب عن سؤالي، ظل صامتًا، وعلامات عدم الاكتراث لي بادية على وجهه. رأيت أن ألقي عليه بخبر صاعق، أختبر به ردة فعله وتفكيره. قلت إن القيادة قررت إخلاء سبيله؛ لأن التحقيق أثبت براءته من معارضة النظام. قال ببرود: هذا كذب. أنا

لم أخف في أي وقت معارضتي للنظام، وقد أخبرت الجلادين بعملي ضده طوال المدة الماضية، ولم أنكر أمامهم، مثلما لا أنكر أمامك هويتي السياسية. تصنعت الهدوء مؤكدًا أن القيادة ليست ضد أصحاب المواقف، وأن المعارضين لا يُحاسبون على آرائهم وأفكارهم، بل على أفعالهم، وأنه لن يحاسب؛ لأنه لم يقم بأي نشاط يستحق العقاب. أجاب بإصرار: بل قمت بأكثر من نشاط، أسردها لك إذا شئت. قلت: إن النشاط الفردي لا يهمنا. قال: إن نشاطه لم يكن فرديًا، فقد شاركه فيه آلاف البشر. فهمست بصوت حاولت جعله أبويًا: هؤلاء خصومك وخصومنا، إذا أعطيتنا أسماءهم، عدت اليوم إلى القرية. فصرخ، وكأن غبطة الدنيا حلت على قلبه: يا لك من رجل مأفون! هل تظن، أيها الغبي، بأنني أرى فيك عمًا، وأن ما يجمعني بك من قربى يعلو على ما يجمعني برفاقي من أواصر إنسانية وأخوية. قال هذا وكرر بتلذذ: كم أنت مأفون!

نهضت عن البطانية وأنا أقول له: لقد جئتك عمًا، وها أنا أغادرك ضابط أمن. قاطعني بلهجة ساخرة: بل جئت ضابط أمن متنكرًا في ثياب عم. قلت: أنت تضعني في موقع العدو. أجاب: لم يكن لك يومًا أي موقع آخر، فافعل ما يحلو لك.

أراحني الحوار، وأعتقني من الوساوس التي أخذت تنتابني حيال مهمتي، وأبان لي أن روابط القربى لم تعد هي التي تشد بعض البشر إلى بعضهم، وأنني وابن أخي ننتمي إلى عالمين متنافيين، ولا مفر من أن يصل عداؤهما إلى نهايته الحتمية.

عدت إلى الفرع المحلي، اتجهت إلى غرفتي، تحدوني رغبة جارفة في التحديق بصورة الرجل الذي أسعى إلى التوغل في عالمه، وكشف أسراره، وقد غدت الرباط الوحيد بيني وبينه، بعد موت أمه. فتحت الملف، فوجدت أن الصورة قد اختفت من صفحته الأولى، قلبته بأصابع مرتجفة، آملًا أن أجدها في مكان ما منه، من دون جدوى. استغربت الأمر، على الرغم من أنه ليس سوى واحدة من غرائب كثيرة واجهتني، مذ كُلفت بالتصدي للظاهرة العرباوية. نزلت إلى غرفة التحقيق؛ لظني بأن الصورة ربما سقطت من الملف في أثناء استنطاق العجوز. لم أعثر على شيء هنا أيضًا، ولم يستطع أي من العناصر تقديم معلومات مفيدة حول اختفائها. شرعت عندئذ أتذكر شكل الرجل الذي يوليه الفرع هذه الأهمية، ولا بد من أن يكون شخصًا مخيفًا، طويل القامة، مفتول الساعدين، تتأجج عيناه في وجهه، وينم فمه على الإرادة والتصميم وحب السيطرة.

طلبت من الخبيث تزويدي بآخر صورة تحتويها ملفات فرعه لعربي، فأخبرني أنهم لم ينجزوا بعد أرشفة سكان المنطقة؛ بسبب ما أسماه «ملابسات الحالة الحدودية». فكرت في أن اطلب الصورة من العاصمة؛ كي لا ينجح هذا «الديري» في إخفاء كوامن روحه وراء وجهه الخالي من الملامح، ووجهه وراء كوامن روحه التي لا سبيل للنفاذ إليها. أمرت رئيس الفرع المحلي بتزويدي باستمارة آل الجسري، فوعد بتنفيذ أمري، ملاحظًا أن هذه الأسرة لم تكن إطلاقًا ذات شأن في البلدة، وأنه لم يسبق لأحد منها أن عارض الوضع القائم، أو أبدى رأيا فيه، أو أي علامة من علامات التذمر منه، فأبديت دهشتي لما

أسمعه، فتذكر حديثًا أخبرني أن شيخ الجامع رواه له، ذكر فيه شخصًا اسمه «حسان الأشهب»، قال إنه عرف عرباويًا من كثب، وكان من أصدقائه المقربين وملازميه. فاجأني النبأ وأفرحني، فأمرت محدثي بإحضار «حسان»، نقطة الضوء التي ستنير لنا العتمة الكثيفة التي نشرها عرباوي حوله.

لم يطل انتظاري هذه المرة، فقد عاد المخبر الذي أرسلناه في طلب حسان؛ ليبلغنا بأنه رفض الحضور إلى الفرع، قائلًا: إنه لا يثق برجال الأمن، ولن يسمح لهم باستدراجه إلى حيث يذهب الناس لخمس دقائق، فلا يعودون أبدًا. أنذره المخبر بأن يد الفرع طويلة، فرد عليه: وساقاي سريعتان، وبيني وبينكم هذه البلاد بطولها وعرضها. بعد مدة من لقاء المخبر وحسان، قال الخبيث: إن إشاعة انتشرت في «دير الجسور» عن اعتقاله، وقيل إن الناس حزنوا عليه؛ لأنه ذهب في السكة التي لا يرجع منها أحد، ولا يعرف دروبها وتشعباتها أحد.

بعد ساعات من انتشار الإشاعة، جاء إلى الفرع فتى صغير السن، قصير القامة، طلب إلى حارسه تسليم «المحقق» رسالة تهمه، فأخذ الحارس الرسالة، آمرًا الغلام بالبقاء قرب المحرس، ريثما يبلغ رسالته إليّ. لكن الصغير أدار ظهره وانصرف، غير آبه بما سمعه، أو مصغ للتهديدات التي أطلقت في أثره. وقد روى من شاهدوا الحادثة من نوافذ الفرع أن الصبي دخل في واحدة من كتل الغبار التي تزوبعها الريح، وأن الصحراء ابتلعته وأخفته عن عيني من كانوا يلاحقونه، وغاب عنهم، وهو على بعد خطوات قليلة من الفرع.

فتحت الرسالة، صلتي الوحيدة بـ «الدير»، أقرأ فيها ما كتبته يد المجهول: لا تتعب نفسك في البحث عن عرباوي؛ لأنك لن تصل إلى أي شيء، على الإطلاق. فعرباوي لم يعد بيننا، وليس بحثك عنه، بالطريقة التي تعتمدها، غير إساءة بالغة له ولنا، تستهدف محو ذكراه من نفوس أبناء بلدته ووطنه وأمته، على الرغم من أنه قدم روحه دفاعًا عنها في معركة «الكرامة». ألا تعرف، أيها الغافل، أن الدولة أرسلت في حينه وفدًا رسميًا قدم التعازي لوالدته التي استشهدت على يديك؟ وهل ترغب في زيارة قبره؛ للتأكد من صحة ما أرويه لك؟ إنه في الصف الثاني من مدافن «الدير»، إذا ما دخلت المقبرة من بابها الشمالي.

حسان الأشهب

قرأت الرسالة مرات عدة، وقد هزني ما تضمنته من معلومات. قصدت، وأنا في أعلى درجات الاضطراب، مكتب رئيس الفرع، أسأله إن كان قد سمع سابقًا باستشهاد عرباوي في معركة الكرامة في الأردن، فأجاب بأنه لم يسمع بذلك، وأكد جازمًا أن أسرة عربي الجسري لم تقدم أي شهيد للوطن، بل كانت على الدوام قليلة الشأن، وإن كان أهالي دير الجسور يزعمون غير ذلك، ويتباهون بمن يسمونه «شهيدها»، ويبالغون في تضخيم دورها.

كنت الآن أكثر من أي وقت مضى في قبضة واجبي المستحيل، اكتشف بحدس غامض ما تعرضت له من تضليل، مذ وضعت قدمي في «الدير». من هذه الرسالة فصاعدًا، ألح علي سؤالان لم يفارقني أي

منهما: هل صحيح أن القيادة تريدني أن أحقق في خلفيات العرباوية، أم إنها أرسلتني لأغراض وغايات أجهلها، أرجح انها ليست في مصلحتي؟ وهل صحيح أن الخبيث ورجاله كانوا يساعدونني في الوصول إلى هدفي، أم إنهم كانوا يزودونني بما يكفي من الأضاليل؛ لأبقى في النفق المظلم الذي تخبطت يائسًا فيه، مذ وطأت قدماي أرض الفرع المحلي و»الدير»؟

لم يبق من خيار لدي سوى زيارة المقبرة. فكرت في البداية باصطحاب من يحميني من عدو النظام وعدوي، حسان الأشهب. لكن ما تراكم لدي من وقائع أقنعني بأن خطر الخبيث عليّ أكبر من أي خطر آخر قد يتهددني في البلدة، فقررت خوض المغامرة بمفردي، ولا سيما أن خلفياتها قد تطال أطرافًا لم تظهر لعيني بعد.

قرأ الخبيث أفكاري هذه المرة أيضًا، فهرول إلى مكتبي، محاولًا إقناعي بالعدول عن الذهاب إلى المقبرة، ملمحًا إلى أن أعدائي قد يقتلونني، ثأرًا للعجوز، ومشيرًا إلى أنه أعلم القيادة بالحوادث الغريبة التي شهدتها «الدير» منذ أن وصلت إليها، وبزياراتي السرية للمنطقة الحدودية مع البلد المعادي، وما أثرته من إرباك وبلبلة في عمل الفرع المحلي، وعلاقاته بـ «الجسريين». تصنعت قبول نصيحته، فأعلمته أن الزيارة لم تكن في أي وقت ضمن برنامجي، وأنها ليست من مستلزمات التحقيق. أخبرته أيضًا بأنني أرى فيه وفي رجاله مصدر معلوماتي الوحيد، وبأنني قررت إقفال الملف، والرجوع إلى العاصمة ظهيرة اليوم التالي.

انطلقت في منتصف نهار عاصف إلى هدفي، متنكرًا بثياب مهرب من أبناء المنطقة. كانت أوصالي ترتجف من الخوف، غير أن رغبتي في معرفة الحقيقة كانت تدفعني إلى القيام بما أقوم به، مهما كان ما قد يحدث.

وصلت المكان، بدت شواهد القبور البيضاء كأذرع تتضرع إلى بارئها، بينما غاصت المقبرة في بحر من ريحان، ينشر عبقه في أرجائها. استغربت وجود الريحان الأخضر في هذه الصحراء القاحلة، لكن استغرابي ما لبث أن زال، عندما تذكرت أن «دير الجسور» بلد معجزات، وأنها تخفي من وجوهها أكثر بكثير مما تظهر. اتجهت إلى الباب الشمالي. كانت المقبرة بلا سياج، فلم أفهم سر إطلاق صفة الباب على القسم الشمالي من الجدار الطيني المتهدم، المحيط بقبور متراصة بدت لي كثيرة العدد، بالقياس إلى عدد سكان البلدة. تجاوزت الصف الأول من المدافن، ويدي على مسدسي، وأنا أتلفت خوفًا في جميع الاتجاهات جميعها. كان كلام رئيس الفرع المحلي قد أخذ يفعل فعله في نفسي، وكدت أشعر بالندم؛ لتسرعي في القدوم إلى هنا من دون حراسة، أو إعلام أحد. دخلت صف القبور الثاني قفزًا، عازمًا على إلقاء نظرة عاجلة على ما حولي، ثم أنصرف من المكان من دون إبطاء. انطلقت بين الشواهد أتصفحها على عجل، وأتفحص بعيني الخائفتين بعض صور شواهدها، وفجأة لاح لي عن بعد اسم عرباوي الجسري، مكتوبًا بخط اليد فوق إحدى الشواهد. اتجهت إليه، وأنا أكرر بصوت مسموع أردت به طمأنه نفسي: لقد وجد -إذن- عربي الجسرواي، ولم يكن أكذوبة أو سرابًا، اقتربت من القبر، إلى أن ظهرت تفاصيله؛ لأرى بقايا صورة تتوسط شاهدته.

قلت في نفسي: هي ذي أخيرًا فرصتك لرؤية الصورة الحقيقية لعربي الذي كثيرا ًما تشوقت إلى رؤيته، تأملت الصورة من كثب، فإذا بالمفاجأة تعقد لساني: لقد وجدتني أقف أمام وجه ابن أخي الصغير، أحسست وهلةً أن الأرض تغور بي، وأنني لم أعد أرى شيئًا مما حولي، انهمرت الأسئلة على ذهني المعطل: ما الذي جاء بابن أخي إلى هذا المكان؟ هل يُعقل أنه هو عرباوي الذي تقول الشاهدة إنه سقط شهيد الواجب، وتسمي مكان وزمان استشهاده؟ ما الذي جعل ابن «مزار الدب» يدفن في «دير الجسور»، والمتشكك بمعارك الجيش يفترش قبر واحد من شهداء فلسطين؟ أهو القدر يمازحني، أم هي الحقيقة التي لا شك فيها؟

قال صوت جاء من وراء القبور: إنها الحقيقة. التفت مذعورًا إلى الوراء، فإذا بشبح يرتدي ثيابًا بيضًا يحدق بي، تعرفت فيه بعد هنيهة أبي. قال صوت آخر جاء عن يميني: حسن، إنك بدأت تقلق للحقيقة، وتفتش عنها في مواضعها. فأضاف أبي متسائلًا: ألم تعرفه، إنه عرباوي الذي تفتش عنه؟ كنت أقف الآن بين أبي وعربي وابن أخي وحسان والعجوز، عاجزًا عن الحركة والنطق. قال أبي: استغربت أن يدفن أحد أبناء «مزار الدب «في «دير الجسور»، ما الفرق بين «المزار» و»الدير»، وبين ابن أخيك وعرباوي؟ لقد قتلتم الأول تحت التعذيب، ثم جئتم به في تابوت حديدي إلى أم عرباوي، وقلتم لها: هو ذا ابنك الشهيد، ادفنيه من دون أن تفتحي تابوته. هكذا جاء ابن أخيك إلى هذه البلدة، وصار له فيها قبر وأحبة. صمت أبي، فأضاف حسان: أردت أن أرى صديقي للمرة الأخيرة، فأتيت إلى المقبرة في

الليل عازمًا على فتح تابوته، فإذا بي حيال فتى صغير، مهشم الجسد، التقطت عندئذ صورة له، وضعتها في إطار خشبي فوق شاهدة قبره؛ لتبقى شهادة على أن فظاعة ظلمكم لن تلغي انتماء ابن اخيه إلينا، كأي ديري آخر. قالت الصورة: لماذا تفتشون عن عرباوي، وكأنه لص أو مجرم، بعد سنوات من موتي؟ ولمَ تتهمون بالخيانة من كنتم تتظاهرون بالاحتفاء به شهيدًا وبطلًا؟ نظرت حولي من جديد، فإذا بحسان يقف وحيدًا حيالي، وقد بدت علامات الهزء بي على وجهه، بينما ارتسمت صورة ابن أخي على شواهد جميع القبور، التي ما فتئت أن حملت اسم عرباوي الجسري.

غادرت المقبرة راكضًا، وصوت حسان يرن في أذني. كان النهار قد تحول إلى صحو رائق، لكن عيني كانتا مليئتين بالظلمة، وقلبي ينز بالغيظ والغضب، كنت أطرح السؤال تلو السؤال حول ما رأيته، وأرجعته مذ وصلت «الدير» إلى ما أخذت أتخبط فيه من تيه، بعد أحداث «المزار»، والقبض على عرباوي، ومقتل ابن أخي والعجوز، وتحدي حسان، وما اتخذه الفرع من مواقف تجاه الوطن وأهله.

وصلت التلة في حال يصعب تصورها، كنت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي، وقد أمسكت بي الحمى، وبدأت روحي تتسرب من جسدي الذي عصف به اضطراب لم يسبق لي أن عانيت شيئا يشبهه، فأخذت أصرخ، طالبًا إحضار نجدات؛ لمحاصرة «دير الجسور»، وصرت أزيد عدد القوات من صرخة إلى أخرى، حتى غدا من المحال تهدئتي وإرضائي.

بعد ساعات من نوبة الخوف التي اعترتني، غرقت في نوم عميق، استيقظت منه في اليوم التالي متسائلًا عما جرى، وهل ألقى الفرع القبض على ابن أخي وأبي وعربي وأمه وحسان، الذين رأيتهم رؤية العين يتحولون إلى شخص واحد، هو عرباوي الذي أخبرني أنه لن يبقى بعد اليوم بعيدًا من « المزار»، قرية ابن أخي الذي استقر في قلوب» الجسريين»، بعد أن جاء الفرع بجثمانه إليهم.

جاء ضابط الفرع يسألني إن كنت قد ذهبت بالأمس إلى المقبرة، فلفتّ نظره إلى أن الأمن يتعامل مع الأحياء، ولا يكترث بالأموات، فأخبرني أنه لا يطرح أسئلته بصفته الشخصية، بل بتكليف من العاصمة التي تحقق في معلومات وصلتها حول نشاطي، وتعرف معرفة تامة جميع حركاتي وسكناتي في هذه المنطقة الحدودية، ذات الوضع الخاص؛ فقلت إنني لا أكترث بأقواله، وسأفتح بنفسي تحقيقًا حول سلوكه الممالئ للعرباوية، ما إن تطأ قدماي أرض العاصمة، وأن انتماءه إلى مدينة قريبة من «الدير» لا يعطيه الحق في التعاطف مع الجرائم التي يقترفها العرباويون ضد أمن الدولة.

وما إن حل النهار، حتى ارتديت ملابسي، وقصدت البلدة. كنت قد سألت العنصر المكلف بخدمتي عن أماكن تجمع الأهالي، فقال إن تجمعاتهم ممنوعة، وإن كنت قد أصادف بعضهم في مقهى «الربع الخالي».

وصلت المقهى، فوجدته خاليًا إلا من صاحبه ونادله، طلبت فنجانًا من الشاي، وجلست أنتظر قدوم الناس. بعد دقائق نظر صاحب المقهى إلي، وقال بلهجة محايدة: لن يأتي الناس اليوم إلى المقهى، سيادة العقيد، فأخبرته بأنني لست عقيدًا، بل تاجرًا يريد شراء السمن لبلدة «السعادة». قال ببرود: بلدتنا لا تنتج السمن، سيادة العقيد. تجاهلته، وطفقت انتظر القادمين إلى أن يئست. وحين نهضت لأغادر المقهى، قال الصوت: إذا كنت تريد كشف أسرار عرباوي، فأنت تضيع وقتك؛ لأنه لم يكن صاحب أسرار، بل عاش من الوضوح. ولو سألت أي فتى في هذه البلدة عنه لأعلمك أنه أكثرنا علمًا، وأعظمنا أخلاقًا، وأشدنا شعورًا بالواجب الوطني وتفانيًا، ودفاعًا عن حقوق المساكين والضعفاء، وأنه عمل لإخراج «الدير» من بؤسها، ونشر أفكاره في كل مكان، قبل أن يقدم روحه لفلسطين. سألته مستفسرًا: أنتم تعرفونه إذن؟ أجاب: وأنت، ألا تعرفه؟ ألم تقابله في هذه البلدة، وغيرها من بلدات وقرى ومدن وطننا؟ ألا تراه في نومك ويقظتك، وتظن بأنه في كل مكان وإنسان، وفي نفسك ذاتها، عندما تنسى من تكون؟

كان صوت حسان هو الذي يحدثني. أدرت ظهري أريد الانصراف، فقال النادل بصوت ناصح: لا تعد إلى الفرع، ابق في « الدير»، أو توجه إلى الصحراء، وستجد فيهما متسعًا لك أنت أيضًا. لم أفهم كلامه، ظننت بأنه يتطاول علي، فحذرته من التمادي. نظر الرجلان إلى بعضيهما، وانفجرا في ضحك صاخب، كأنني أسمعتهما طرفة، أو مازحتهما. خرجت من المقهى، وما إن قطعت بضعة أمتار،

حتى التفت إلى الخلف؛ لأرى ما يفعلانه، فإذا بهما مستغرقين في ضحكهما.

وما إن غادرت المقهى، حتى تدفق إليه خلق كثير، أتوا من أزقة و"زواريب» ودروب لم أرها، وقفزوا من أسطح منازل لا وجود لها في «الدير»، وعن أشجار ليست فيها، واندلقوا كسيل تدفق إليها من الجهات جميعها، حتى أنني رأيت بعضهم يهبط من السماء، أو يخرج من الأرض. أخذت الساحة الصغيرة، الواقعة أمام المقهى، تمتلئ بالناس كما تمتلئ كأس بالماء. بعد قليل، فاض البشر عن حواف الساحة، وانتشروا في الفراغ الهائل المحيط بالبلدة. أيقنت للحظة أن سكان البلاد -بأسرها- يتوافدون إلى «الدير»، فلم أتساءل عن سبب قدومهم الى هذا القفر الموحش. كانت الدنيا من حولي تضج بالألوان، والوجوه تتجه إلي، والعيون تحدق بي، فلا أرى، كيفما اتجهت، إلا عيونًا واسعة محدقة، ثم حدث ما لم أكن أتوقعه في هذه الأجواء المذهلة، إذ ارتفعت فجأة، وفي اللحظة ذاتها، أياد لا تعد ولا تحصى، انبثقت منها أصابع مدببة، شرعت تقترب ببطء مني، إلى أن اخترقت جلدي، وفتقت جسدي، كما لو كانت حرابًا تنهمر عليه وتنغرس فيه، كان البشر يحيقون بي، مطلقين أصابعهم نحوي، وأنا أسعى إلى الهرب، وأحاول دفعهم بعيدًا مني، بينما أصدر أصواتًا يخنقها الرعب.

لم يتح لي الوقت لأتساءل عن الأمكنة التي أتت منها أمواج البشر المتدافعة إلى «الدير». وكيف حدث أنني لم أر إنسانًا واحدًا منها قبل اليوم؟ كانت الكتل البشرية تواصل التحديق بي، إلى أن فغرت أفواهًا، وأطلقت ضحكة مجلجلة تشبه ضحك حسان ورفيقه، وقد تعاظم ملايين المرات. سددت أذني، وأغمضت عيني، وبدأت أركض نحو الفرع؛ المكان الوحيد الآمن الذي سيقيني من الطوفان الداهم.

كانت الصحراء تنبسط أمامي، وكان الفرع يبدو كتلة حجرية، يتصاعد حولها الغبار. ركضت من دون توقف، وأقدام الحشد تركض إلى جانبي، وضحكه يتعالى، مزلزلًا الأرض والسماء، بينما كان غبار أقدامه يحجب عني الضوء، ويحول دون وصول الهواء إلى صدري، وكنت أختنق، وقد غدوت في قبضة موت محتم.

لا أدري كم ساعة مرت، مذ غادرت المقهى، فكل ما أعرفه أنني استيقظت، فوجدتني في طريق خالية، تحيط بي كلاب مترقبة جائعة، كنت قد رأيتها، وهي تحيط بالحمار وتلتهمه، نهضت، وبدأت أركض نحو الفرع، شاهرًا مسدسي، تتعقبني الكلاب بألسنتها المتدلية من أفواهها المفتوحة.

بلغت التلة عازمًا على إنهاء المهمة المستحيلة. دخلت إلى غرفتي؛ كي أعد نفسي للرحيل، وما إن بدأت أجمع أوراقي وحاجياتي الشخصية، حتى جاء الخبيث يخبرني أن القيادة طلبتني مرات متكررة، عندما كنت في المقهى، قلت: سأغادر البلدة صباح اليوم التالي. لكنه أكد أنني سأغادرها في الحال؛ لأن هذا رغبة القيادة. التفت إلى سائقي

آمره بإعداد السيارة للسفر، فإذا بالخبيث يبلغني أن سيارة تنتظرني منذ ساعات.

نظر إلى عناصر الفرع المنتشرين في الغرفة، فخرجوا إلى الممر، ووقفوا في صفين، عن يمينه وشماله. كنت أعرف معنى هذا التدبير، لكنني حاولت تجاهل الأمر، وقلت بصوت آمر: لا داعي لمثل هذه الأشكال من الوداع الرسمي، فأجاب بلهجة مرحة: ما تراه سيكون جزءًا من وداعك هنا، واستقبالك هناك. فهمت أن الساعة التي لا ريب فيها قد دنت، وراودني إحساس لا أعرف سببه، أعلمني أنها تأخرت أكثر من اللازم، انتبهت عندئذ إلى أنني آخر من يقع في هاوية الفرع، من الذين نُقلوا معي من الجيش.

رفعت رأسي، محاولًا مواجهة مصيري بالشجاعة التي كثيرًا ما رأيت المعتقلين يواجهون بها مصيرهم، نهضت، وابتعدت عن الطاولة؛ لأضع يدي وراء ظهري، فوضع عنصر القيد فيهما، بينما كان عنصر آخر يضع العصبة الجلدية السوداء على عيني، ويجرني إلى السيارة خارج المبنى، ويأمرني بالصعود إلى صندوقها، قبل أن تنطلق نحو العاصمة البعيدة.

بعد وقت من مغادرة البلدة، رجوت الحراس السماح لي بالجلوس، فأجلسوني على المقعد الخلفي، ونزعوا العصبة عن عيني. أخذت الآن أشعر بالهدوء، وبأن الاضطراب والقلق اللذين عشتهما خلال الأشهر الأخيرة في سبيلهما إلى مبارحتي. كنت أعرف تمام المعرفة ما يعنيه هذا بالنسبة إلى انتمائي إلى الفرع، وتفاصيل ما ينتظرني، بصفتي ضابطًا

يسابق فيه، وعلى الرغم من ذلك، استهوتني اللعبة، فأخذت أفكر بما سيحدث لي، وكأنني غير معني به. هل أبالغ إذا قلت إنني نمت في الطريق إلى السجن أكثر مما نمت خلال الأيام الأخيرة جميعها، وإنني بدوت لنفسي كمن اجتاز حقل ألغام، ووصل إلى أرض نظيفة، ويوشك أن يدخل من جديد في حقل ألغام آخر، ولكن ليس ضابط أمن، بل بوصفي شخصًا يملؤه إحساس بالراحة، بعد أن زال طعم الدم الحار والمالح من فمه، أول مرة منذ وطأت قدماه «الدير».

وصلت السيارة إلى الفرع، أنزلني العناصر الذين كانوا في انتظاري منها، وكان الذين رافقوني قد أعادوا العصبة إلى عيني، قبيل وصولنا إلى العاصمة، والقيد إلى يدي. كان صفان من العناصر في انتظاري، وفي يد كل منهم أداة ضرب. في نهاية ساعات النفق الطويلة الذي كثيرًا ما أشرفت على مرور المعتقلين فيه، سألني رئيس الديوان عن اسمي، فأجبته وأنا منكس الرأس، بحسب تقاليد الفرع: خالد العاصي، فأمر الموظف الممسك بدفاتر الفرع، قائلًا: اكتب عرباوي الخالد، وأضاف موجهًا كلامه إليّ: هل كنت تظن حقًا بأنك تستطيع خداع القيادة التي أعلمك الآن أنها أرسلتك لتفضح هويتك الحقيقة، بحجة التحقيق في خلفيات عرباوي الجسري. اقتادني عنصر إلى الزنزانة الجماعية التي كنا قد حشرنا العرباويين فيها، كان المكان فارغًا إلا مني، فوقفت وسطه أتأمله في إمعان، وقد سكّن نفسي هدوء لم أنعم بمثله منذ مقتل ابن أخي. وبعد قليل أخذت أتحسس جدران الزنزانة بأصابعي، علني أجد تحت طلائها الطري أثرًا لمن سبقوني إليها، على الرغم

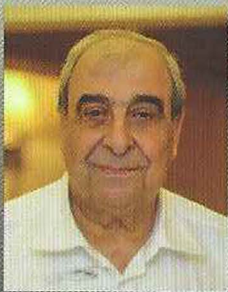
من علمي بأن الفرع كان يطمس ما يكتبه هؤلاء؛ كي لا يعرف المعتقلون الجدد شيئًا عن الذين سبقوهم إليها، بعدّها أمكنة لا أمل لهؤلاء في الخروج منها. كنت أتساءل عما إذا كانت العرباوية قد تغلغلت حقًّا في داخلي، كما أخبرني حسان في المقهى، ويخبرني الآن هدوئي وإحساسي بالانفكاك عن «المزار» وحمدان الأبرص والفرع.

فُتح باب الزنزانة، ودخل إليها ضابط، كان قبل أيام قليلة أحد مساعديّ؛ وضع العصبة من جديد على عيني، ثم قيد يدي وراء ظهري، ولف رأسي ببطانية تفوح منها رائحة البول، وأخذ يدفعني أمامه إلى السلم الدائري، الشبيه بسلم القبو في فرع «الدير». كنت أتابع بعين بصيرتي الطريق التي لا أراها، لكنني سرت فيها آلاف المرات. توقف أمام باب، وأخذ يطرقه، بينما أوقفني من كانوا قربه أمام حائط قريب، برأس منكس وقدمين متباعدتين، وساعدين مرفوعين إلى حائط.

بعد ساعات من الوقوف، انهال خلالها العناصر عليّ ضربًا، أدخلوني إلى غرفة التحقيق، وقبل أن يقول المحقق شيئًا، بادرت إلى سؤاله عن العرباويين الذين كانوا في السجن، فرد متسائلًا في استغراب: عرباويون في السجن؟! لماذا نسجن مجرمين يستحقون الموت؟! لقد أقنعنا القيادة بتغيير رأيها، بعد ذلك، أعدنا العرباويين من المستشفى، وفرقناهم على البلاد. ألم تتعرف إلى أحد منهم في مقبرة «الدير»؟

رأيت بعين خيالي السوط، وهو يشق الهواء نحو جسدي العاري، بينما انطلق صوت يشبه عواء ذئب مسعور: أين، يا ابن العاهرة، أضعت ملامحك التي كانت واضحة عند وصولك إلى الفرع؟

كان الصوت يتعالى حانقًا، والسوط ينهال على جسدي، وأنا أفقد الإحساس بنفسي وبالأشياء.



ميشيل كيلو

كاتب وباحث سوري، من مواليد اللاذقية عام 1940، عمل في وزارة الثقافة والإرشاد القومي بين عامي 1967 - 1987، ثم استقال منها، شغل سابقًا منصب رئيس مركز حريات للدفاع عن حرية الرأي والتعبير في سورية، وأحد مؤسسي لجان إحياء المجتمع المدني، وأحد المشاركين في صوغ إعلان دمشق، وعضو سابق في الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي، كان عضوًا في "الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة حتى 2016" واستقال منه، سجن في عام 1980 لعامين وبضعة أشهر، ثم سجن مرة أخرى عام 2006 فترة تزيد على ثلاثة أعوام، محلل سياسي وكاتب ومترجم وعضو في اتحاد الصحافيين السوريين، وعضو مجلس استشاري في شبكة جيرون الإعلامية، ترجم كيلو بعضًا من كتب الفكر السياسي من الألمانية إلى العربية منها كتاب "الإمبريالية وإعادة الإنتاج" وكتاب "الدار الكبيرة"، و"لغة السياسة" و"الوعي الاجتماعي"، كاتب مستقل في عدة صحف عربية وأجنبية.

دير الجسور

"ما إن عدت من قرية "مزار الدب"، قرية آبائي وأجدادي، حيث كانت القيادة قد طلبت إليّ مواصلة التحقيق في مسألة على قدر كبير من الخطر، أمتنع عن التطرق إليه في تقريري هذا السري جدًا، والخاص جدًا؛ حتى تلقيت أمرًا بالسفر إلى بلدة اسمها "دير الجسور"، مكلفًا بدراسة ما أسماه مدير الفرع "الخلفيات الاجتماعية التي أنجبت واحدًا من عتاة المتآمرين، المدعو عربي الجسري، الملقب بعرباوي".

قلبت في ذهني أسماء المناطق والبلدات التي أعرفها في بلادي، أو تلك التي مر ذكرها خلال التحقيقات مع مجرمين، تحدروا من أمكنتها المختلفة، فلم أجد بينها بلدة أو قرية اسمها "دير الجسور"؛ فقصدت مكتب المشرفين في الفرع على التطور الجغرافي للوطن، أستعلم عن "الدير" وأوضاعها، فإذا بهم يخبرونني بأنهم لم يسمعوا -هم أيضًا- باسمها من قبل.... أحد الضباط توجه إلى خزانة مصفحة، فتحها وأخرج منها كتابًا، فتحه وأخذ يقرأ فيه بصوت خافت، يصعب سماعه، وهو مكب عليه؛ ليحجبه عن أنظاري. وبعد دقائق، وصل فضولي خلالها إلى ذروته، رفع رأسه، والتفت إليّ، وقال بصوت بدا لي معدوم الاكتراث: "ليست "دير الجسور" بلدة، بمعنى الكلمة، بل هي أقرب إلى معزل، يقع على الحدود مع البلد المعادي...."

السعر: 10 دولارات

ISBN 978-605-79646-0-1

ميسلون
للطباعة والنشر والتوزيع
Maysaloon for printing, publishing and distribution